جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

ألفاظ الدلالة النفسية دراسة تحليلية لنماذج مختارة من القرآن والسنة

إعداد

د/ ممدوح إبراهيم محمود محمد
أستاذ فقه اللغة في كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

(العدد الثامن والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. مايو)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

ألفاظ الدلالة النفسية دراسة تحليلية لنماذج مختارة من القرآن والسنة.

ممدوح إبراهيم محمود محمد

كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: mamdouh99@gmail.com

الملخص:

تأتي أهمية هذا البحث من ارتباط اللغة والدلالة بعلم اللغة النفسي من حيث دراسة العوامل النفسية والعصبية الحيوية التي تؤثر على استخدام اللغة واستيعابها، وكذلك من حيث دراسة كيفية استخدام اللغة في السياقات الاجتماعية لخلق المعنى والتأثير على السلوك، ومن حيث معرفة أهمية دقة التعبير في الكشف عن القيم الاجتماعية والمعتقدات الثقافية، ومن حيث الوقوف على السياق ودقة التعبير الملائمة له. ولم يكن غرضنا في هذا البحث الإلمام بجميع الألفاظ المعبرة عن الانفعالات النفسية في السياقين الكريمين؛ لأن ذلك يحتاج إلى مجلد ضخم، ولا إلى دراسة السياقات التي تحمل دلالة نفسية في حد ذاتها والوقوف على مضامينها النفسية؛ لأن هذا مجاله الدراسات البلاغية والأدبية، وإنما كان مجال اهتمام هذا البحث هو دراسة طائفة من الألفاظ التي تعبر عن الحالات أو الانفعالات النفسية ومدى دقة ملائمة اللفظ المعبر عنها دون غيره من الألفاظ الأخرى في السياقين الكريمين ولم ألتزم في إيرادها ترتيبا معجميا معينا وإنما قدمت منها ما كان أبرز وأكثر شيوعا في بيان الحالة النفسية، كما عني البحث بدراسة طائفة ثانية من الألفاظ المتقاربة دلاليا في التعبير عن الحالة النفسية؛ لإيضاح الفرق بينها وبيان عدم ترادفها مما يبرز الخصوصية المعنوية لهذه الألفاظ في السياقين الكريمين، كما عني البحث بطائفة ثالثة من الألفاظ المعبرة عن الانفعالات النفسية على سبيل المجاز أو على سبيل التصوير والتجسيم في أبهى وأبلغ صورة، وكذا ببيان دور الألوان التي تظهر في ملامح الوجه في إيضاح الحالة النفسية لصاحبه في السياقين الكريمين، ومن هنا جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الدلالة النفسية، القرآن، السنة، علم اللغة النفسي، السياق.

Psychological Semantic Terms: An Analytical Study of Selected Examples from the Qur'an and Sunnah.

Mamdouh Ibrahim Mahmoud Mohammed
College of Arabic Language, Imam Muhammad ibn Saud Islamic University, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: mamdouh99@gmail.com

Abstract:
The importance of this research stems from the connection between language and semantics and psycholinguistics in terms of studying the psychological and neurobiological factors that affect the use and comprehension of language, as well as in terms of studying how language is used in social contexts to create meaning and influence behavior, in terms of knowing the importance of precision of expression in revealing social values and cultural beliefs, and in terms of understanding the context and the precision of expression appropriate to it. Our aim in this research was not to cover all the words expressing psychological emotions in the two noble contexts, because that would require a huge volume, nor to study the contexts that carry psychological connotations in themselves and understand their psychological implications; Because this is the field of rhetorical and literary studies, but the focus of this research was to study a group of words that express psychological states or emotions and the extent of the accuracy of the appropriateness of the word expressing them without other words in the two honorable contexts. I did not adhere to a specific lexical order in presenting them, but rather presented what was most prominent and common in expressing the psychological state. The research also focused on studying a second group of words that are semantically close in expressing the psychological state; to clarify the difference between them and to show their lack of synonymy, which highlights the semantic specificity of these words in the two honorable contexts. The research also focused on a third group of words that express psychological emotions by way of metaphor or by way of depiction and embodiment in the most beautiful and eloquent image, as well as explaining the role of the colors that appear in the features of the face in clarifying the psychological state of its owner in the two honorable contexts. Hence, this research came in an introduction, a preface, three chapters, a conclusion, and an index of sources and references.

Keywords: Psychological semantics, Quran, Sunnah, Psycholinguistics, Context.

•مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وهب لنا الحياة وأرشدنا إلى طريق الحق والهدى، والصلاة والسلام على سيد الأنام من بعثه الله هاديا ومبشرا ونذيرا سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد،،،

فمن يعكف على دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ويتأمل ويتدبر ما ورد فيهما من تأملات النفس الإنسانية المطمئنة أو اللوامة أو الأمارة بالسوء يجِدْ وصفاً دقيقاً وتشخيصاً حياً لكثير من الانفعالات النفسية التي يشعر بها الإنسان في حياته إيجابية كانت مثل: الحب والفرح والاستحياء، أو سلبية مثل: الخوف والغضب والخجل والسخرية والبغض والاشمئزاز والنفور وغيرها معتمداً في عرضها على اللفظ المعبر عنها تارة، وعلى الوصف ثانية، وعلى التصوير والتجسيد تارة ثالثة. وكان اختياري للقرآن الكريم والأحاديث النبوية ليكونا محوري البحث؛ لما يتميزان به عن أي تعبير وسياق آخر في الكشف عن دقة الدلالة وعدم تداخلها ولقوة صياغتهما وتشخيصهما للحالة النفسية ومشاعر الانفعالات النفسية في أبهى حلة وأبلغ تعبير، فلكل عاطفة من عواطف الإنسان تأثير خاص يظهر في ملامح وجهه، ولها من الألفاظ بما تحمله من ظلال وإيحاءات نفسية محددة ما تبين به دقة الانفعال ومداه، ومن التراكيب الحقيقية أو المجازية ما يصورها بدقة متناهية.

وتأتي أهمية هذا البحث من ارتباط اللغة والدلالة بعلم اللغة النفسي من حيث دراسة العوامل النفسية والعصبية الحيوية التي تؤثر على استخدام اللغة واستيعابها، وكذلك من حيث دراسة كيفية استخدام اللغة في السياقات الاجتماعية لخلق المعنى والتأثير على السلوك، ومن حيث معرفة أهمية دقة التعبير في الكشف عن القيم الاجتماعية والمعتقدات الثقافية، ومن حيث الوقوف على السياق ودقة التعبير الملائمة له. ولم يكن غرضنا في هذا البحث الإلمام بجميع الألفاظ

المعبرة عن الانفعالات النفسية في السياقين الكريمين؛ لأن ذلك يحتاج إلى مجلد ضخم، ولا إلى دراسة السياقات التي تحمل دلالة نفسية في حد ذاتها والوقوف على مضامينها النفسية؛ لأن هذا مجاله الدراسات البلاغية والأدبية، وإنما كان مجال اهتمام هذا البحث هو دراسة طائفة من الألفاظ التي تعبر عن الحالات أو الانفعالات النفسية ومدى دقة ملائمة اللفظ المعبر عنها دون غيره من الألفاظ الأخرى في السياقين الكريمين ولم ألتزم في إيرادها ترتيبا معجميا معينا وإنما قدمت منها ما كان أبرز وأكثر شيوعا في بيان الحالة النفسية، كما عني البحث بدراسة طائفة ثانية من الألفاظ المتقاربة دلاليا في التعبير عن الحالة النفسية؛ لإيضاح الفرق بينها وبيان عدم ترادفها مما يبرز الخصوصية المعنوية لهذه الألفاظ في السياقين الكريمين، كما عني البحث بطائفة ثالثة من الألفاظ المعبرة عن الانفعالات النفسية على سبيل المجاز أو على سبيل التصوير والتجسيم في أبهى وأبلغ صورة، وكذا ببيان دور الألوان التي تظهر في ملامح الوجه في إيضاح الحالة النفسية لصاحبه في السياقين الكريمين، ومن هنا جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وجاءت مباحثه الثلاثة على النحو التالي:

المبحث الأول: ألفاظ الدلالة النفسية المباشرة في القرآن والسنة. المبحث الثاني: ألفاظ الدلالة النفسية غير المباشرة في القرآن والسنة. المبحث الثالث: أثر السياق في تحديد الدلالات النفسية للألفاظ متقاربة الدلالة في القرآن والسنة.

وقد سبقتني في هذه الدراسة عدة دراسات تختلف عنها اختلافا جوهريا في المنهج وفي المعالجة وفي الألفاظ المدروسة نفسها، ولم أجد دراسة عنيت بدراسة هذا النوع من الدلالة ولا من الألفاظ في الأحاديث النبوية الشريفة مما ميز بحثي هذا بميزة خاصة إضافة إلى ما أشرت إليه، وأهمها ما يلي:

١. الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم – محمد جعفر محيسن العارضي – رسالة في كلية الآداب بجامعة القادسية، وهي بعيدة كل البعد عن الألفاظ

الدالة على الانفعالات النفسية حيث تناولت ألفاظ الماء والأمكنة والأرض والظواهر الطبيعية، والعلم والكلام والحركة واللباس والزينة والفقر والإطعام، ولم تعرض للألفاظ النفسية إلا في المبحث الخامس من الفصل الثالث وما تناوله فيه من الألفاظ غير ما ورد في بحثي هذا. وقد رتبت فيها الألفاظ في حقول دلالية، فكانت على النحو التالي: الفصل الأول: ألفاظ العقيدة. الفصل الثاني: الألفاظ الاجتماعية. الفصل الثالث: ألفاظ خلق الإنسان وحياته، الفصل الرابع: ألفاظ الطبيعة.

٢. الأبعاد النفسية للألفاظ في القرآن الكريم دراسة تحليلية دلالية – مجيب سعد الكرعاوي – وقد تناول فيها ستة ألفاظ فقط لم يرد منها في بحثي هذا إلا لفظ واحد هو لفظ صرة وهذه الألفاظ الستة هي: صرة، حزب، رهط، شرذمة، عصبة، نفر.

٣. التعبير القرآني والدلالة النفسية – د/ عبد الله محمد الجيوسي، وهي دراسة بلاغية تتحدث في مجملها عما يحدثه القرآن الكريم من تأثير في النفوس، وعن الحرف القرآني والكلمة القرآنية وفيه عرض لألفاظ: آنس، العام والسنة، الذوق، الخوف والخشية في سبعة أسطر تقريبا، زاغ، يتربصن، الزيارة، البخع، كبكبوا، اثاقلتم، ولا وجود لهذه الألفاظ في بحثي باستثناء الخوف والخشية، كما تحدث عن النظم القرآني والجوانب النفسية، وعن الصورة البيانية والجوانب النفسية وفيها تحدث في عشر صفحات عن المجاز بأنواعه المختلفة والمعاني النفسية ولم يعرض فيه شيئا مما ورد في بحثي هذا نهائيا، وعن القصة القرآنية، وعن المنهج النفسي في تفسير القرآن.

٤. الدلالة النفسية للألفاظ اللغوية في الخطاب القرآني حسن القول وسيئه أنموذجا – سليم مزهود – وهو بحث في ثمانية عشر صفحة، وفيه تحدث عن أبرز آفات اللسان، والنهي عن الألفاظ السلبية، وعن أبرز محاسن اللسان في الخطاب القرآني، ولا علاقة له ببحثي هذا من قريب أو بعيد.

٥. تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم دراسة فنية – صالح ملا عزيز – وفيه حلل الباحث ست كلمات ورد منها أربعة في بحثي، كما تحدث عن أساليب التصوير وهي: الحوار والوصف والحركة، وعن مظاهر الانفعالات النفسية في صفحة واحدة من مجمل البحث المكون من ثلاثة وعشرين صفحة فقط.

والله – ﷻ – أسأل التوفيق والسداد فيما صبوت إليه إنه نعم المولى ونعم النصير ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ سورة هود من الآية (٨٨)

تمهيد

مدخل في الدلالة النفسية

يعد الحديث عن دور اللفظ في الكشف عن الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان في موقف ما، ويظهر أثرها في سلوكه وتعبيره وملامح وجهه أو تصوير الموقف المعبر عن الحالة النفسية بدقة من خلال إظهاره في صورة جمالية مصورة له خير تصوير وأبلغه، من مجالات علم اللغة الحديث المتمثل في علم اللغة النفسي وهو أحد فروع علم اللغة التطبيقي، وهو "علم حديث لم يتبلور إلا في أوائل الستينات من القرن الماضي وإن ظهرت الإرهاصات قبل ذلك، وهو علم يتكون من علمين هما: علم اللغة، وعلم النفس". (١) ويعنى به عند جاك ريتشاردز Richards, J :"العلم الذي يهتم بدراسة العمليات يعرفه العقلية التي تتم في أثناء استعمال الإنسان للغة فهما وإنتاجا، كما يهتم باكتساب اللغة نفسها". (٢) من خلال بيان ملامح الدلالة النفسية وهي تلك الملامح والإشارات التي تنعكس على النفس الإنسانية فتحدث فيها استجابة معينة سواء أكانت لفظية أم حركية، إرادية أم غير إرادية. ومن هنا فإن الدلالة النفسية تهتم اهتماما واسعا بمعرفة علاقة الكلمات والرموز بالعواطف والمشاعر والمعتقدات والقيم الإنسانية في مجتمع معين له ثقافة معينة تظهر في أداة التعبير وهي اللغة المنطوقة أو المكتوبة. فاللغة الإنسانية هي المفتاح لمعرفة عقل الإنسان وتفكيره.كما ذكر تشومسكي. (٣) وقد جاءت هذه الدراسة للكشف عن المدلولات

---

(١) علم اللغة النفسي مناهجه ونظرياته وقضاياه الجزء الأول (المناهج والنظريات) – د/ جلال شمس الدين صـ ٨ – مؤسسة الثقافة الجامعية/ الإسكندرية، مصر.

(٢) علم اللغة النفسي في التراث العربي – د/ جاسم علي جاسم – مجلة الجامعة الإسلامية – العدد ١٥٤ّ صـ ٥٠٨.

(٣) السابقّ صـ ٥١١.

النفسية التي تميزت بها بعض الألفاظ أو الأساليب في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. إذ تشير الدلالة النفسية إلى مدى ارتباط الكلمات والعبارات بالعمليات والتجارب والحالات العقلية، وكيف تعكس اللغة ذلك في المواقف والعواطف والدوافع والعمليات المعرفية. ومعرفة ودراسة كيف يمكن أن تختلف التفسيرات للألفاظ والأساليب اعتمادًا على السياق الذي تُستخدم فيه اللغة؛ لأن اللغة وسيلة للتعبير عن المشاعر والأحاسيس والانفعالات والعواطف المختلفة، وهي التي تعكس الصورة النفسية لدى المتكلم بها، وهي المرآة التي تعكس مشاعر الإنسان وانفعالاته واتجاهاته النفسية في صورة تعبيرات حقيقية أو مجازية بدقة تصويرية للحالة النفسية التي تختلف باختلاف الموقف أو الحالة، ويكون السياق هو المرآة الحقيقية للمعنى المعبر عن الحالة بدقة متناهية، ومن هنا فإن السياق القرآني والسياق في الأحاديث النبوية الشريفة كانا من أبرز السياقات المحددة لدلالة واستعمال هذه الألفاظ المعبرة عن الانفعالات النفسية بدقة لا مثيل لها بحيث يستعمل فيهما لفظ معين لا يجوز استبداله بأقرب الألفاظ إليه خلافا لما هو معمول به في اللغة المعتادة بين الناس، وكذا يظهرها في صورة تعبيرية بديعة تظهرها وكأنك حاضر للمشهد حيث تتغير دلالة بعض الألفاظ بسبب العامل النفسي الذي يجب مراعاته لما فيه من بيان ووضوح لقيم المجتمع المسلم وأخلاقه التي يجب التمسك بها في التعبير عن بعض المواقف النفسية مما يستقبح فيها ذكره ويستهجن التصريح به، أو مما يتطير وتشاءم منه فيستعاض عنها بألفاظ أخرى محببة لدى النفس الإنسانية تعبر عنها بما تحمله من إيحاءات وظلال نفسية تبين من خلال السياق المراد بها. وهو ما يسمى عند علماء اللغة المحدثين باسم السياق العاطفي، وهو السياق الذي يحدد درجة الانفعال قوة وضعفا وفيه تنتقى فيه الكلمات التي تحمل شحنات عاطفية أو انفعالات نفسية بدقة بحيث تميزها عن أقرب الكلمات إليها، ويظهر هذا بوضوح في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أكثر من أي سياق آخر.

ومن هنا كان السياقان القرآني والنبوي من أبرز السياقات في تحديد درجة الانفعال النفسي بدقة متناهية. فالكلمة القرآنية هي من أسرار الإعجاز اللغوي والبياني التي تحدى الله بها العرب وهم أرباب الفصاحة والبيان فعجزوا؛ لما فيها من قصدية ودقة في موضعها وتقريب للمعاني بأوصاف حسية تظهر ما تجيش به من ظلال وإيحاءات نفسية، ولا يقل الحديث النبوي الشريف عنه في ذلك؛ لأنه من كلام المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، فجاءت السنة النبوية بما ورد في القرآن الكريم من حيث دقة انتقاء الألفاظ وحسن التعبير وقوة السبك والصياغة وملاءمة المقام.

ومن هنا أيضا نجد أن الدلالة النفسية تضيف إلى اللغة جانبا مهما وفاعلا يظهر من خلاله مدى عبقرية اللغة المستعملة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة سواء أكان ذلك عن طريق انتقاء اللفظ المناسب للتعبير به عن المعنى المرام أم عن طريق الأسلوب البليغ، أو عن طريق عرض المواقف التي تظهر فيها هذه الدلالة من خلال القصص القرآني، أو من خلال عرض المشاهد التي يكون عليها الناس يوم القيامة وهما مما لا يعنى به هذا البحث.

المبحث الأول

ألفاظ الدلالة النفسية المباشرة في القرآن والسنة

في القرآن الكريم وكذا في السنة النبوية الشريفة وردت ألفاظ كثيرة تعبر عن الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان في موقف معين وتكون واصفة ومعبرة أو كاشفة عن حاله التي هو عليها أبلغ وصف حين ينتابه إحساس أو شعور عميق بفرح أو حزن أو ألم أو غيظ أو توجع أو فرح وسرور أو نحو ذلك مما يظهر على ملامح الوجه من تعبيرات تظهر بوضوح الحالة الانفعالية التي يكون عليها. ومن ذلك ما يلي:

لفظ (الغيظ):

الغيظ: أصله في اللغة هو : كَرْبٍ يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنْ غَيْرِهِ. يُقَالُ: غَاظَنِي يَغِيظُنِي. وَقَدْ غِظْتَنِي يَا هَذَا. وَرَجُلٌ غَائِظٌ وَغَيَّاظٌ. قَالَ:

سُمِّيتَ غَيَّاظًا وَلَسْتَ بِغَائِظٍ عَدُوًّا وَلَكِنَّ الصَّدِيقَ تَغِيظُ (١)

..... (٢)

وقال ابن منظور: الغيْظُ: الغَضب، وَقِيلَ: الْغَيْظُ غَضَبٌ كَامِنٌ لِلْعَاجِزِ، وَقِيلَ: هُوَ أَشدُّ مِنَ الغضَب، وَقِيلَ: هُوَ سَوْرَتُه وأَوّله. وغِظتُ فُلَانًا أَغِيظه غَيْظاً وَقَدْ غَاظَهُ فَاغْتَاظَ وغَيَّظَه فتَغَيَّظ وَهُوَ مَغِيظ؛ قَالَتْ قُتَيْلةُ بِنْتُ النَّضْرِ بْنِ الحارث أخت النضر بن الحارث تبكيه بعد أن أسر في معركة بدر وقد أمر النَّبِيُّ – ﷺ – بقتله وهو أسير فقتله علي بن أبي طالب:

مَا كَانَ ضَرَّكَ، لَوْ مَنَنْتَ، ورُبما مَنَّ الْفَتَى، وَهُوَ المَغِيظُ المُحْنَقُ (٣)

---

(١) البيت أنشده أبو حاتم في: الدلائل في غريب الحديث – أبو محمد بن حزم العوفي السرقسطي ٣/ ٩٦٩، ونسب إلى زياد الأعجم أو غيره في غياظ بن حضين المنذر، ينظر: شعر زياد الأعجم جمع وتحقيق ودراسة – د/ يوسف حسين بكار صـ ١٠٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة – ابن فارس (غ ي ظ).

(٣) لسان العرب – ابن منظور – باب الظاء فصل الغين (غ ي ظ)، وكذا نسب لها في =

وقيل الفرق بينه وبين الغضب: "إن الغضب يتبعه إرادة الانتقام البتة، ولا كذلك الغيظ، وقيل: الغضب ما يظهر على الجوارح والبشرة من غير اختيار والغيظ ليس كذلك، وقيل: هما متلازمان إلا أن الغضب يصح إسناده إلى الله تعالى والغيظ لا يصح فيه ذلك". (١)

وفي الاصطلاح هو: عبارة عن حالة شعورية تعبر عما يجيش في داخل الإنسان وقت غضبه من أمر ما، بل هو عند بعض علماء اللغة أشد من الغضب، وهو صفة عارضة له وليست ثابتة فيه ولا ملازمة له، إذ تكون فقط عند احتداده؛ لذا عرفه الألوسي بقوله: "هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر". (٢) أي "صفة تغير في المخلوق عند احتداده يتحرك لها" (٣)

وقد ورد لفظ الغيظ ومشتقاته في القرآن الكريم عشر مرات وفيها جميعها كان معبرًا عن هذه الحالة الشعورية التي محلها القلب كما في قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٤) وهي الحالة التي تنتاب الإنسان فيكون في حالة غضب كبير إلا أنه يكون عاجزًا عن إحداث ردة فعل لما ألم به، فقد يبيح بما يغيظه، وقد يكتم غيظه فلا يشعر به أحد، وكظم الغيظ سمة من سمات المتقين الذين مدحهم الله بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ

=

السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٣، والبداية والنهاية – ابن كثير ٣/ ٣٠٦.

(١) روح المعاني ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) روح المعاني – الألوسي ٢/ ٢٧٢.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر – ابن الأثير ٣/ ٧٥٦، ومجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار – جمال الدين الكجراتي – ٤/ ٨٣.

(٤) سورة التوبة الآية (١٥).

فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) فَكَظْمُ الْغَيْظِ إِمْسَاكُهُ وَإِخْفَاؤُهُ حَتَّى لَا يَظْهَرَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ كَظَمَ الْقِرْبَةَ إِذَا مَلَأَهَا وَأَمْسَكَ فَمَهَا، قَالَ الْمُبَرِّدُ: فَهُوَ تَمْثِيلٌ لِلْإِمْسَاكِ مَعَ الِامْتِلَاءِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَقْوَى الْقُوَى تَأْثِيرًا عَلَى النَّفْسِ الْقُوَّةُ الْغَاضِبَةُ فَتَشْتَهِي إِظْهَارَ آثَارِ الْغَضَبِ، فَإِذَا اسْتَطَاعَ إِمْسَاكَ مَظَاهِرِهَا، مَعَ الِامْتِلَاءِ مِنْهَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى عَزِيمَةٍ رَاسِخَةٍ فِي النَّفْسِ، وَقَهْرِ الْإِرَادَةِ لِلشَّهْوَةِ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ قُوَى الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ. (٢) فالكظيم هو الْمُمْتَلِئُ حنقاً وغيظاً، أو الممتلئ حُزْنًا وكربا وَغَمًّا، وقد بين الله – ﷻ – هذه الصفة أو الحالة النفسية التي تلم بالإنسان إذا حزبه أمر ما فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٣) أي: مملوء حنقاً على المرأة، يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ يستخفي منهم مِنَ أجل سُوءِ المبشر به". (٤) وكما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥) والكظيم هنا في الآية الكريمة معناه: "أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْكَاظِمِ وَهُوَ الْمُمْسِكُ عَلَى حُزْنِهِ فَلَا يُظْهِرُهُ. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْمَكْظُومِ، وَمَعْنَاهُ الْمَمْلُوءُ مِنَ الْحُزْنِ مَعَ سَدِّ طَرِيقِ نَفَسِهِ الْمَصْدُورُ مِنْ كَظْمِ السِّقَاءِ إِذَا اشْتَدَّ عَلَى مَلْئِهِ، وَيَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى مَمْلُوءٍ مِنَ الْغَيْظِ عَلَى أَوْلَادِهِ". (٦) أما

(١) سورة آل عمران الآيتان (١٣٣، ١٣٤).
(٢) التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور ٤/ ٩١.
(٣) سورة النحل الآيتان (٥٨، ٥٩).
(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – أبو القاسم الزمخشري ٢/ ٦١٢.
(٥) سورة يوسف الآية (٨٤).
(٦) مفاتيح الغيب ١٨/ ٤٩٩.

عن وصف هذه الحالة وكيفية حدوثها بطريقة فسيولوجية عند من وصف بها فقد بينها الألوسي في قوله: "أصل الكظم مخرج النفس يقال: أخذ بكظمه إذا أخذ بمخرج نفسه، ومنه كظم الغيظ لإخفائه وحبسه عن الوصول إلى مخرجه". (١) وأصل الكظم في اللغة هو ملء الوعاء وسده. والمقصد من الجملة أن يمسك المرء على ما في صدره من غيظ ويصبر عليه ولا يظهر أثره. (٢) وقيل: "أصل الكظم شدّ رأس القربة عند امتلائها". (٣) وقيل هو: "مأخوذ من عملية رَبْط القِرْبة التي نحمل فيها الماء؛ فإنْ لم نُحْكِم ربطها انسكب منها الماء؛ ويُقال «كظم القربة» أي: أحكم ربطها". (٤) والمراد: "والمتجرعون للغيظ الممسكين عليه عند امتلاء نفوسهم منه فلا ينقمون ممن يدخل الضرر عليهم ولا يبدون له ما يكره، بل يصبرون على ذلك مع قدرتهم على الإنقاذ والانتقام وهذا هو الممدوح". (٥)

أما في الحديث النبوي الشريف فقد تواترت الأحاديث النبوية الشريفة في مدح هذه الصفة أي كظم الغيظ ومنها الحديث: "عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –" مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ، مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ". (٦) بل ورد فيها أيضا ما يدل على على أن كظم الغيظ من أعظم العبادات في مجاهدة النفس، ففي الحديث: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا

(١) روح المعاني ٧/ ٤٠٧.
(٢) التفسير الحديث – دروزة محمد عزت ٧/ ٢٣٠.
(٣) روح المعاني ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣.
(٤) تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٢٨٢.
(٥) روح المعاني ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣.
(٦) سنن ابن ماجه – باب الحلم حديث رقم (٤١٨٩)، ٢/ ١٤٠١، والآداب للبيهقي – باب باب كظم الغيظ وكتم الغضب حديث رقم (١٣٥)، صـ ٥٦.

الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ". (١) وفيه أيضا ما يدل على أن الغيظ محله القلب ففي الحديث: "حَدَّثَنَا شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ، تَقُولُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي دَعْوَةً أَدْعُو بِهَا لِنَفْسِي، قَالَ: قُولِي: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ». (٢)

وفي القرآن الكريم ما يثبت هذه الحالة الشعورية التي يكون عليها المغتاظ إزاء موقف معين وهو قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٣) أي "أن جهنم حين يرد عليها هؤلاء الواردون من أهلها، تلقاهم مغيظة محنقة، تكاد تميز من الغيظ، أي تتقطع وتتمزق من الغيظ، والحنق عليهم، لا يشفى غليلها، إلا أن تحتويهم وتجعلهم وقودًا لها". (٤) فمعنى: تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ أي: "تتفرق أجزاؤها من الغيظ على الذين أغضبوا الله ورسوله. شبهت في شدة غليانها، وقوة تأثيرها في أهلها، بإنسان شديد الغيظ على غيره، مبالغة في إيصال الضرر إليه، فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية، وهي الغضب الباعث على ذلك. واستعير لتلك الحالة المتوهمة الغيظ، وأما ثبوت الغيظ الحقيقيّ لها بخلق الله فيها إدراكًا، فبحث آخر. لكنه قد قيل هنا: إنه لا حاجة إلى ادعاء التجوز فيه؛ لأن (تكاد) تأباه". (٥)

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري– باب (الحذر من الغضب) – الحديث رقم (٦١١٤)، ٨/ ٢٨.

(٢) الدعاء للطبراني – باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو به في سائر نهاره – حديث رقم (١٤٣٩) صـ ٤٢٤.

(٣) سورة الملك الآية (٨).

(٤) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم يونس الخطيب ١٥/ ١٠٥٥.

(٥) محاسن التأويل – محمد جمال الدين القاسمي ٩/ ٢٨٩، ٢٩٠.

وفي الحديث أيضا ما يدل على أن هذه الحالة النفسية خاصة بالإنسان العاجز عن إحداث ردة فعل ألمَّ به فوقف مغتاظًا حائرًا عاجزًا لا يعرف ماذا يفعل، فـ "عن علقمة عن عَبْدِ اللهِ قَالَ: "بَيْنَا نَحْنُ عَشِيَّةً فِي الْمَسْجِدِ إِذْ قَالَ رَجُلٌ: إِنْ أَحَدَنَا رَأَى مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، فَإِنْ قَتَلَهُ قَتَلْتُمُوهُ، وَإِنْ هُوَ تَكَلَّمَ جَلَدْتُمُوهُ، وَإِنْ هُوَ سَكَتَ، سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، لَأَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ أَحَدَنَا رَأَى مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، فَإِنْ قَتَلَهُ قَتَلْتُمُوهُ، وَإِنْ هُوَ تَكَلَّمَ جَلَدْتُمُوهُ، وَإِنْ سَكَتَ، سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، اللهُمَّ احْكُمْ، فَأُنْزِلَتْ آيَةُ اللِّعَانِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، أَوَّلُ مَنِ ابْتُلِيَ بِهِ". (١)

وقد جاء الغيظ في القرآن الكريم أيضًا دالا على آفة من آفات القلب تعبر عن الحالة النفسية التي هي شعور داخلي للإنسان تجاه غيره وهي آفة الحقد والحسد وذلك قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾. (٣) فقد شبه المسلمين بالزرع لأنهم كثير، ولأن كل واحد منهم له ذاتيته إلى جانب هذه الشجيرات الكبيرة التي يضمها الحقل.. وقوله تعالى: «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» - هو إشارة إلى هذا

(١) شرح معاني الآثار - أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي - حديث رقم (٤٦٥٨)، ٣/ ٩٩.

(٢) سورة التوبة الآية (١٥).

(٣) سورة الفتح الآية (٢٩).

الزرع الطيب، الذي يملأ العين سرورًا ورضًا، وهو في الوقت نفسه يملأ قلوب الكافرين حسرة وحسدًا. (١)

وفي الحديث الشريف ما يفيد ذلك أيضا، ففيه: "حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَيَّانَ، ثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ أَحْمَدَ، ثَنَا رُسْتَهْ أَبُو عُرْوَةَ، – رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ الزُّبَيْرِ – قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مَالِكٍ فَذَكَرُوا رَجُلًا يَنْتَقِصُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ – ﷺ – فَقَرَأَ مَالِكٌ هَذِهِ الْآيَةَ: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ} حَتَّى بَلَغَ: {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} فَقَالَ مَالِكٌ: مَنْ أَصْبَحَ فِي قَلْبِهِ غَيْظٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – ﷺ – فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْآيَةُ".(٢)

وقد ذكرت من قبل أن الغيظ صفة عارضة وليست ملازمة للموصوف بها؛ لأنه حالة نفسية أو شعورية مرتبطة بموقف ما فإذا ما انتهى زالت ولم يبق لها أثر، لكن الغيظ ورد في القرآن أيضا كصفة ملازمة للكفار وذلك في قوله تعالى: ﴿هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣) قال ابن عاشور: "الدُّعَاءُ عَلَيْهِمْ بِالْمَوْتِ بِالْغَيْظِ صَرِيحُهُ طَلَبُ مَوْتِهِمْ بِسَبَبِ غَيْظِهِمْ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ مُلَازَمَةِ الْغَيْظِ لَهُمْ طُولَ حَيَاتِهِمْ إِنْ طَالَتْ أَوْ قَصُرَتْ، وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ دَوَامِ سَبَبِ غَيْظِهِمْ، وَهُوَ حُسْنُ حَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَانْتِظَامُ أَمْرِهِمْ، وَازْدِيَادُ خَيْرِهِمْ، وَفِي هَذَا الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ بِلُزُومِ أَلَمِ الْغَيْظِ لَهُمْ، وَبِتَعْجِيلِ مَوْتِهِمْ بِهِ، وَكُلٌّ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ الْمُكَنِّي بِهِمَا مُرَادٌ هُنَا، وَالتَّكَنِّي بِالْغَيْظِ وَبِالْحَسَدِ عَنْ كَمَالِ الْمُغِيظِ مِنْهُ

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٣/ ٤٣١.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – أبو نعيم أحمد موسى بن مهران الأصبهاني ٦/ ٣٢٧.

(٣) سورة آل عمران الآية (١١٩).

الْمَحْسُودِ مَشْهُورٌ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: فُلَانٌ مُحَسَّدٌ، أَيْ هُوَ فِي حَالَةِ نِعْمَةٍ وَكَمَالٍ". (١) فالغيظ في هذه الآية الكريمة جاء وصف ذات لا وصف حال، ومثله قوله تعالى حكاية عن أتباع فرعون: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ (٢) أي: فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا؛ لأنهم يأتون بأقوال وأفعال تغيظنا وتغضبنا، على رأسها اقتراحهم علينا أن نترك ديننا، والمعنى: "أنهم – أي موسى ومن معه – لقلتهم لا يبالى بهم، ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم، ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده". (٣) بينما هو في الآيات الأخرى كان وصف حال لا وصف ذات.

صك الوجه:

أصل الصك في اللغة هو "تَلَاقِي شَيْئَيْنِ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، حَتَّى كَأَنَّ أَحَدَهُمَا يَضْرِبُ الْآخَرَ". (٤) وقد استعمل تعبير صك الوجه حقيقة أو تعبيرًا يكون دائمًا عند العرب منذ القدم حتى يومنا هذا؛ لبيان حالة نفسية غريبة وعجيبة وغير متوقعة من النساء اللاتي يتعرضن لأشدّ المواقف استغرابًا ودهشة، فتصك أو تلطم وجهها حقيقة فعلية أو إشارية لتوضيح هذه الحالة النفسية الغريبة الطارئة، وذلك حينما تعجز اللغة عن التعبير عن هذا الموقف الانفعالي فتصوره بهذا التصوير البليغ. قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (٥) فقد

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٦٧.

(٢) سورة الشعراء الآيات (٥٣، ٥٤، ٥٥).

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم – الشيخ/ محمد سيد طنطاوي ١٠/ ٢٥٠.

(٤) مقاييس اللغة (ص ك).

(٥) سورة الذاريات الآيتان (٢٨، ٢٩).

اشتملت الآيتان الكريمتان على ثلاث كلمات تحمل شحنات عاطفية مختلفة ومعبرة عن حالات نفسية أو وجدانية ارتبطت بالسياق والمقام ارتبطًا تامًا فجاءتا معبرتين عن هذه المشاعر خير تعبير، فقد صورتا لنا الحالة النفسية التي كانت عليها السيدة سارة زوج نبي الله إبراهيم – عليه السلام – عند تلقيها نبأ حملها مع كونها عاقر وقد بلغت من العمر عتيًا، فالكلمة الأولى منها هي كلمة (البشرى) وهي في أصل اللغة كلمة تدل على خبر سار قادم ويكون محبوبًا في النفس، وَالْبِشَارَةُ تُطْلَقُ فِي الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الْخَبَرِ بِمَا يَسُرُّ فيفرح الإنسان ويبتهج بسماعه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (١) وكما في قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ (٣) وبهذا المعنى ورد اللفظ في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ بُشْرَى مِنَ اللهِ، وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حُلُمًا يَكْرَهُهُ، فَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ». (٤) ويطلق قليلا على سبيل المجاز على خبر غير سار أو على الخبر المحزن تهكمًا بصاحبه. ويكون استعماله في الشَّرِّ مُقَيَّدًا بِهِ مَنْصُوصًا عَلَى الشَّرِّ لِلْمُبَشَّرِ بِهِ. (٥) كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٦) قال ابن

(١) سورة هود الآية (٦٩).

(٢) سورة مريم الآية (٧).

(٣) سورة الحجر الآية (٥٥).

(٤) السنن الكبرى للنسائي – باب (ما يقول إذا رأى في منامه ما يكره) – الحديث رقم (١٠٦٦٧) ٩/ ٣٣٠.

(٥) البحر المحيط في التفسير – أبو حيان ١/ ١٨٠.

(٦) سورة آل عمران من الآية (٢١).

ابن عاشور في شرحه لهذه الآية الكريمة: "وَحَقِيقَةُ التَّبْشِيرِ: الْإِخْبَارُ بِمَا يُظْهِرُ سُرُورَ الْمُخْبَرِ (بِفَتْحِ الْبَاءِ) وَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي ضِدِّ حَقِيقَتِهِ، إِذْ أُرِيدَ بِهِ الْإِخْبَارُ بِحُصُولِ الْعَذَابِ، وَهُوَ مُوجِبٌ لِحُزْنِ الْمُخْبَرِينَ، فَهَذَا الِاسْتِعْمَالُ فِي الضِّدِّ مَعْدُودٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ مِنَ الِاسْتِعَارَةِ، وَيُسَمُّونَهَا تَهَكُّمِيَّةً؛ لِأَنَّ تَشْبِيهَ الضِّدِّ بِضِدِّهِ لَا يَرُوجُ فِي عَقْلِ أَحَدٍ إِلَّا عَلَى مَعْنَى التَّهَكُّمِ، أَوِ التَّمْلِيحِ، كَمَا أَطْلَقَ عَمْرُو ابْنُ كُلْثُومٍ. اسْمَ الْأَضْيَافِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَأَطْلَقَ الْقِرَى عَلَى قَتْلِ الْأَعْدَاءِ، فِي قَوْلِهِ:

نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الْأَضْيَافِ مِنَّا فَعَجَّلْنَا الْقِرَى أَن تشتمونا

قزيناكم فَعَجَّلْنَا قِرَاكُمْ قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً طَحُونَا (١)

....." (٢) وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِتَأْثِيرِهِ فِي الْبَشْرَةِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَثَّرَ الْمَسَرَّةَ وَالِانْبِسَاطَ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا أَثَّرَ الْقَبْضَ وَالِانْكِمَاشَ.(٣)

وفي الآية الكريمة التي معنا دلت (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) على أصل البشارة وهي الخبر السار وهو أن الله – ﷻ – يبشر سارة زوج سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وهي عجوز مسنة لا تلد فقد "كانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحاق، وتسع وتسعين سنة في قول مجاهد". (٤) بينما كان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في سن التسعين بعد المائة بولدين هما إسحاق ويعقوب ﴿فَبَشَّرْنَاها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٥) أي بشرت بالولد والحفيد، مما أثار ضحكها من غرابة هذه البشرى التي تراها غير حقيقية، وأثار دهشتها واستغرابها وتعجبها من مثل وقوع

(١) ديوان عمرو بن كلثوم – تح د/ إميل بديع يعقوب صـ ٧٣.
(٢) التحرير والتنوير ٣/ ٢٠٧.
(٣) البحر المحيط في التفسير – أبو حيان ١/ ١٨٠.
(٤) التفسير المظهري – محمد ثناء الله المظهري – تح/ غلام نبي التونسي ٥/ ١٠٠.
(٥) سورة هود من الآية (٧١).

هذا الأمر ﴿فضحكت قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[١]

أما الكلمة الثانية فهي كلمة (صرة) بفتح الصاد وتضعيف الراء ومعناها في أصل اللغة وفي الآية الكريمة: الضَّجَّةُ وَشدة الصياح، وَالصَّرَّةُ الْجَمَاعَةُ، وَالصَّرَّةُ الشِّدَّةُ مِنْ كَرْبٍ وَغَيْرِهِ. [٢] قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

فَأَلْحَقَهُ بِالْهَادِيَاتِ وَدُونَهُ جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزَيَّلِ [٣]

قال الجوهري: "وقول امرئ القيس يحتمل هذه الوجوه الثلاثة". [٤] وقال الزجاجُ: "الصَّرَّةُ أشدُّ الصِّياحِ يكونُ في الطائرِ والإنسانِ وغيرهما قال جريرٌ:

ذَاكم سَوادةُ يَجْلُو مُقْلَتِي لَحِمٍ بازٍ يُصَرْصِرُ فَوق المَرْقَبِ العالِي [٥]

قال ثَعْلَب: قيل لامرْأةٍ أيُّ النِّساءِ أبغَضُ إليك فقالت: التي إن صَبِحَتْ صَرْصَرَتْ". [٦] ومن هنا كانت كلمة (صرة) في الآية الكريمة معبرة تمامًا عن

(١) سورة هود الآية (٧٢).

(٢) تاج اللغة وصحاح العربية – الجوهري –باب الراء فصل الصاد (ص ر ر)، وأساس البلاغة – الزمخشري – باب الصاد فصل الراء (ص ر ر).

(٣) وكذا نسب البيت لامرئ القيس في العين – الخليل بن أحمد – باب (الحاء والجيم والراء معهما ٣/ ٧٥)

(٤) العين – باب الصاد والراء (ص ر ٧/ ٨٢)، وتهذيب اللغة – أبو منصور الأزهري – باب الصاد والراء (ص ر ١٢/ ٧٦)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية باب الراء فصل الصاد (ص ر ر)، وأساس البلاغة باب الصاد فصل الراء (ص ر ر).

(٥) ديوان جرير صـ ٣٤٥، ورواية البيت في الديوان:

لكنْ سَوادةُ يَجْلُو مُقْلَتِي لَحِمٍ بازٍ يُصَرْصِرُ فَوق المَرْقَبِ العالِي

(٦) المحكم والمحيط الأعظم – ابن سيده الأندلسي – باب الصاد والراء (ص ر ر ٨/ ٢٦٣)

الحالة التي كانت عليها السيدة سارة ومصورة لحالة الانقباض والشد النفسي الذي كانت عليه حين تلقيها هذه البشارة في هذا السن التي لا تلد فيها النساء.

أما الكلمة الثالثة فهي كلمة (صكت) ومعناها: لطمت الوجه والجبين ببسط يدها وأطراف أصابعها، فلما بشرت بالولد صكت وجهها أي ضربت وجهها تعجبًا وهو من صنيع النساء وعادتهن وإنما فعلت ذلك تعجبًا. وهو تعبير حركي انفعالي؛ لأن صك الوجه أو لطمه يتضمن التعبير عن أشدّ المواقف استغرابًا ودهشة، وذلك حينما تعجز اللغة عن التعبير في الموقف الانفعالي. وهو أحد الأشكال التعبيرية الثلاثة – التي استعملتها زوج سيدنا إبراهيم – عليها السلام – للتعبير عن دهشتها من هذه البشرى – (التعبير الصوتي في قوله "صرة" أي صاحت وصوتت، والتعبير الحركي الانفعالي في "صكت"، والكلام في: قالت عجوز عقيم) – ولعل ترتيب الأشكال التعبيرية (الصوت والحركة والكلام) يجسّد فطرية التعبير عند الإنسان وفق النظرية الطبيعية التي ترى أن تعبير الإنسان عن حاجاته بدأ بأصوات مبهمة. وتفيد قرائن العطف بين الجمل أن التعبيرين الصوتي والحركي متلازمان.

وقد ورد هذا التعبير عن هذه الحالة الشعورية أو النفسية ذات الحركة الانفعالية والطبيعة الفطرية في الشعر العربي القديم معبرًا عن الحالة النفسية التي تكون عليها المرأة حين ترى أمرًا غريبًا لا تتوقعه فيزعجها فتضرب صدرها مستنكرة له ومتعجبة من حدوثه، ومن ذلك قول الشاعر الهذلول بن كعب العنبري:

تقول وصكت صدرها بيمينها أبعلي هذا بالرحا المتقاعس (١)

(١)شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية «لأربعة آلاف شاهد شعري» – محمد بن محمد حسن شُرَّاب ٢/ ٢٦. والشاعر من بني سعد بن زيد مناة تميم، وكان مملكاً، قد عقد له النكاح على امرأة لم يدخل بها بعد، فمرت به في نسوة وهو يطحن بالرحى لضيف نزلوا =

فالشاعر حكى ما قالته امرأته وهي تدق صدرها بيمينها، مستنكرةً لما رأته من طحنه لضيفه، ومستفظعة لما شاهدت من تخففه وتبذله، وهو قوله: أبعلي هذا المتقاعس بالرحا. فإنها استشنعت هيئته وامتهانه نفسه فيما يمتهن فيه الخدم، وبأنف من توليه ذوو الرزانة والعزة. وإنما ابتدأ كلامه بتقول؛ لأن القول يحكى به ما كان كلامًا، ويعمل فيما كان قولاً. والمتقاعس: بناءٌ لما يفعل تكلفًا. على هذا قولهم تخازر وتعامى. والمتقاعس: الذي يخرج صدره ويدخل ظهره، وذلك شكل من يطحن بالرحى. وقوله: أبعلي موضعه رفعٌ بالابتداء، والألف لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الإنكار والتقريع....

فقلت لها لا تعجلي وتبيني بلائي إذا التفت عليَّ الفوارس

حكى ما جعله جوابًا للمرأة: كما حكى كلامها، وهو قوله لا تعجلي مع ما يتبعه. ومعنى البيت: لا تسرعي إنكارك، بل تثبتي في حكمك، وتبيني براعتي في فعالي...". [(١)] يقول ابن جني في شرحه للبيت: "فلو قال حاكيًا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس – من غير أن يذكر صك الوجه – لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، لكنه لما حكى الحال فقال: "وصكت وجهها" علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها. هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين، وقد قيل "ليس المخبر كالمعاين" ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله: (وصكت وجهها) لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها. وليست كل حكاية تروى لنا ولا كل

=

به، فقالت: أبعلي هذا! تعجبا واحتقارا له، فقال الأبيات (الكامل في اللغة والأدب – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ١/ ٣٤).

(١) شرح ديوان الحماسة – أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني صـ ٤٩٤، ٤٩٥.

خبر ينقل إلينا يشفع به شرح الأحوال التابعة له المقترنة – كانت – به. نعم ولو نقلت إلينا لم نفد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها". (١)

وقد ورد هذا التعبير (الصك) في معنى ضرب الوجه أو الخد في نصوص الحديث النبوي الشريف ومنه الحديث : "عَنْ هِلَالِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ، حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ الْحَكَمِ السُّلَمِيُّ، قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطُولِهِ، قَالَ: ثُمَّ أَطَّلَعْتُ غُنَيْمَةً تَرْعَاهَا جَارِيَةٌ لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَوَجَدْتُ الذِّئْبَ قَدْ أَصَابَ مِنْهَا شَاةً، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، فَصَكَكْتُهَا صَكَّةً، ثُمَّ انْصَرَفْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَأَخْبَرْتُهُ فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قَالَ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أَعْتِقُهَا؟ قَالَ: «بَلَى إِيْتِنِي بِهَا». قَالَ: فَجِئْتُ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتِ: اللَّهُ فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» فَقَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «إِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ فَأَعْتِقْهَا». (٢) وكذا ورد في كتب الشروح قال بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ): "فَصَكَّتْ فَجَمَعَتْ أَصَابِعَهَا فَضَرَبَتْ جَبْهَتِهَا أَشَارَ بِهِ إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلت امْرَأَته فِي صرة فصكت وَجهها﴾ وَفسّر: (فصكت) بقوله: (فجمعت) إِلَى آخِره، وَهُوَ قَول الْفراء بِلَفْظِهِ، وَفِي رِوَايَة أبي ذَر، جمعت بِغَيْر فَاء، حَدثنَا سعيد بن مَنْصُور من طَرِيق الْأَعْمَش عَن مُجَاهِد فِي قَوْله: فصكت وَجهها، قَالَ: فَضربت بِيَدِهَا على جبينها. وَقَالَت: يَا ويلتاه. قَوْله: (فِي صَلَاة)، أَي: فِي صَيْحَة". (٣) وكذا ورد فيه التعبير باللفظ المرادف وهو (اللطم) الذي كان من عادة العرب في الجاهلية، إذ كان من عاداتهم إذا ألمت بأحدهم مصيبة حثيُ التراب على الوجه، ولطمُ الخدود، وشقُ

(١) الخصائص – أبو الفتح عثمان بن جني ١/ ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي – أبو بكر البيهقي – باب (قول الله – ﷻ – أأمنتم من في) حديث رقم (٨٩٠)، ٢/ ٣٢٥.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري – بدر الدين العينى – سورة الذاريات ١٩/ ١٩٠.

الجيوب، واستماع النوح، فجاء الحديث الشريف ناهيًا عن هذه العادات التي ارتبطت بحياة العرب في الجاهلية ففي الحديث: "عنْ إبْرَاهِيمَ عنْ مَسْرُوقٍ عنْ عَبْدِ الله – ﷺ – قَالَ: قَالَ النبيُّ – ﷺ –: لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ وشَقَّ الجُيُوبَ ودَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ". (١) أي ليس من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه من الدين، ولكن فائدة إيراده بهذا اللفظ المبالغة في الردع عن الوقوع في مثل ذلك، "من لطم الخدود" أي من أظهر الجزع والحزن والسخط على قدر الله في أفعاله فلطم الخدود. قال الحافظ: وخص الخد بذلك لأنه الغالب، وإلا فضرب الوجه داخل في ذلك، "وشق الجيوب" جمع جيب وهو ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس. أي وشق ثيابه من شدة الجزع "ودعا بدعوى الجاهلية" أي وناح على الميت كما كانوا يفعلون في الجاهلية. (٢) ولهذه الصكة أو اللطمة ظهور جسدي في الوجه قال الطحاوي: "وَكَانَتِ اللَّطْمَةُ قَدْ يَكُونُ عَنْهَا الشَّيْنُ فِي الْوَجْهِ الَّذِي يَكُونُ تَمْثِيلًا بِالْمَلْطُومِ، فَلَمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – الْكَشْفَ عَنْ ذَلِكَ قَبْلَ حُضُورِ الْجَارِيَةِ إِلَيْهِ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ فِي وَجْهِهَا مَا يَكُونُ تَمْثِيلًا بِهَا". (٣)

الأسف:

أصل الأسف في اللغة هو "الدلالة عَلَى الْفَوْتِ وَالتَّلَهُّفِ". (٤) وهو نفس ما ذكره الجوهري قال: "وأصل الأسف في اللغة هو الحزن عَلَى مَا فَاتَه؛ لأَنَّ الأَسَفَ عندَ العَربِ الحُزْنُ، وقِيل: أَشَدُّ الْحُزْنِ. (٥) قال الخليل: "الأَسَفُ: الحُزْن

(١) السابق – ٥٣ – (بابٌ لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الجُيُوبَ) حديث رقم (٤٩٢١)، ٨/ ٨٧.

(٢) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري – حمزة محمد قاسم – "باب ليس منا من شق الجيوب" حديث رقم (٤٣٨)، ٢/ ٣٨٠.

(٣) شرح مشكل الآثار ١٣/ ٣٦٩.

(٤) معجم مقاييس اللغة (أ س ف).

(٥) تاج اللغة وصحاح العربية – باب الفاء فصل الهمزة (أ س ف)، والقاموس المحيط – =

في حال. والغضب في حال، فإذا جاءك أمرٌ مِمَّنْ هو دونك فأنت أَسِفٌ، أي: غضبان، وإذا جاءك ممّن فوقك، أو من مثلك فأنت أَسِفٌ، أي: حزين. [١]وقيل: الأَسَفُ المبالغة في الحُزْنِ والغَضَبِ. [٢] والأول هو الصحيح قال الزمخشري مؤكدًا صحة ذلك في شرحه للحديث الشريف "النَّبِي – ﷺ – سُئِلَ عَن موت الْفُجَاءَة. فَقَالَ رَاحَة لِلْمُؤمنِ وَأَخْذَة أَسف للْكَافِر". قال: "أَسف أَي أَخْذَة سخط من قَوْله تَعَالَى {فَلَّما آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} وَذَلِكَ لِأَن الغضبان لَا يَخْلُو من حزن ولهف فَقيل لَهُ أَسف. ثمَّ كثر حَتَّى اسْتعْمل فِي مَوضِع لَا مجَال للحزن فِيهِ. وَهَذِه الْإِضَافَة بِمَعْنى من كخاتم فضَّة. أَلا ترى أَن اسْم السخط يَقع على أَخْذَة وُقُوع اسْم الْفضة على خَاتم. وَتَكون بِمَعْنى اللَّام نَحْو قَوْله: قَول صدق ووعد حقٍ. وَمِنْه حَدِيث النَّخعِيّ – رَحمَه الله – إِن كَانُوا ليكرهون أَخْذَة كأخذة الأسف. إِن هَذِه هِيَ المخففة من الثَّقِيلَة وَاللَّام للْفرق بَينهَا وَبَين إِن النافية. وَالْمعْنَى إِنَّه كَانُوا يكْرهُونَ أَي إِن الشَّأْن والْحَدِيث هَذَا". [٣] ونظير الأسف هو (التأوه) وليس الحزن أو الغضب "أواَّه بالمدِّ وأوَّه بِالْقصرِ وآووه وأوُهُ وأَوْهَ وآهٍ: كلمة مَعْنَاهَا التّحزُّن، وأوْه لفُلَان وَمن فلَان إِذا اشْتَدَّ عَلَيْك فَقده، ورجلٌ أوَّاهٌ: شَدِيد الْحزن وَقيل هُوَ الدّعاء إِلَى الْخَيْر وَفِي التّنزيل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيم لأوّاهٌ حَلِيم﴾. ابْن السّكيت: وَقَوْلهمْ آهةً وأَمِيهةً: ألآهة من التّأَوُّه وَهُوَ التّوجُّع قَالَ تأوَّهْت آهاً وآهةً وَأنْشد: إِذا مَا قُمْت

=

باب الفاء فصل الهمزة (أ س ف)، وتاج العروس – باب الفاء فصل الهمزة (أ س ف).

(١) العين – باب (السين والفاء و ا ي ء ٧/ ٣١١)

(٢) المحكم والمحيط الأعظم (س ف و ا ي ء ٨/ ٥٥٧).

(٣) الفائق في غريب الحديث (١/ ٤٢).

أَرْحَلُها بلَيْلٍ تأوَّه آهة الرَّجُل الحزين... أَبُو عُبَيْد: هِيَ كلمة مَعْنَاهَا الأسف على الشّيء يفوت.(١)

أما في الاصطلاح فهو: "ثوران دم القلب شهوة للانتقام، فَمَتَى كَانَ ذَلِك عَلَى مَن دُونَه انْتَشَر وَصَارَ غَضَباً، وَمَتى كَانَ عَلَى مَن فَوْقَه انْقَبَضَ فصارَ حُزْناً، وَلذَلِك سُئِل ابنُ عَبَّاس عَن الحُزْنِ والغَضَبِ، فَقَالَ: مَخْرَجُهما واحدٌ، واللَّفْظُ مُخْتلِف، فمَن نازَع مَن يقْوَى عَلَيْهِ أَظْهَرَ غَيْظاً وغَضَباً، ومَنْ نازَع مَن لَا يقْوَى عَلَيْهِ حُزْناً وجَزَعا". (٢)

وقد وردت كلمة (الأسف) ومشتقاتها في القرآن الكريم خمس مرات للتعبير عن حالة نفسية أو انفعالية تنتاب الإنسان إزاء الشعور بالحزن العميق أو الشديد المبالغ فيه أو السخط والغضب المبالغ فيهما لأمر ما قد ألم به، وحقيقته كحالة نفسية أو انفعالية تظهر في أداة التعبير وهي اللغة المكتوبة أو المنطوقة لتعبر عن حالة وجدانية داخلية فهو: "انْفِعَالٌ لِلنَّفْسِ يَنْشَأُ مِنْ إِدْرَاكِ مَا يُحْزِنُهَا وَمَا تَكْرَهُهُ مَعَ انْكِسَارِ الْخَاطِرِ". (٣)

قال أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ): "الأسف: كل مَا فِي الْقُرْآن من ذكر الأسف فَمَعْنَاه الْحزن، إِلَّا {فَلَمَّا آسفونا} فَإِن مَعْنَاهُ أغضبونا". (٤) فقد ورد اللفظ في القرآن الكريم خمس مرات، جاء في أربعة مواضع منها بمعنى الحزن الشديد كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ

(١) المخصص ٤/ ٨٨.

(٢) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية – الكفوي صـ ١١٤، والتوقيف على مهمات التعاريف صـ ٥٠، وتاج العروس – باب الفاء فصل الهمزة (أ س ف).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٨١)

(٤) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية صـ ٨٢.

فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [١] فيعقوب – عليه السلام – يعلم يقينا أن القصّة التي جاء بها إليه أبناؤه في شأنه كانت مكذوبة ملفقة، وأن ذئبًا لم يأكله.. فهو حيّ ميت.. يطلع عليه في كل لحظة بهذه الصورة العجيبة، فتهيج لذلك أحزانه، ويشتد كربه، وتسرح به الظنون في كل أفق، باحثًا عن يوسف.. ثم يعود آخر المطاف ولا شيء معه، إلا هذه الزّفرات التي تنطلق من صدره، فترسم على لسانه هذا النغم الحزين: «يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ»!! وهكذا تهجم لوعات الأسى والحسرة على هذا الشيخ الكبير، حتى لقد ابيضّت عيناه من الحزن الدفين الذي أبى على عينيه أن تبللهما قطرات الدموع، وأن تطفئ النار المشتعلة فيهما، حتى أتت على فحمة سوادهما، وأحالته رمادًا! «فهو كظيم» أي يكظم حزنه، ويحبسه في صدره.. وذلك هو الحزن أفدح الحزن، وأشدّه قسوة. [٢] ولا أدل على شدة الحزن الذي عانى منه يعقوب – عليه السلام – من قول الألوسي: "قال بعض العارفين: الحكمة في ذهاب بصر يعقوب وبقاء بصر آدم وداود – عليهما السلام – مع أنهما بكيا دهرًا طويلا أن بكاء يعقوب كان بكاء حزن معجون بألم الفراق فقد تجلي جمال الحق من مرآة وجه يوسف، ولا كذلك بكاء آدم وداود فإنه كان بكاء الندم والتوبة، وأين ذلك المقام من مقام العشق". [٣] ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٤]، وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ

(١) سورة يوسف الآية (٨٤).
(٢) التفسير القرآني للقرآن ٧/ ٣٣، ٣٤.
(٣) روح المعاني ٧/ ٧٥.
(٤) سورة الأعراف الآية (١٥٠).

أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ (١)

والفرق بينه وبين الغضب هو: أن "الْغَضَبُ: انْفِعَالٌ لِلنَّفْسِ وَهَيَجَانٌ يَنْشَأُ عَنْ إِدْرَاك مَا يسوؤها وَيُسْخِطُهَا دُونَ خَوْفٍ، وَالْوَصْفُ مِنْهُ غَضْبَانٌ. وَالْأَسَفُ: انْفِعَالٌ لِلنَّفْسِ يَنْشَأُ مِنْ إِدْرَاكِ مَا يُحْزِنُهَا وَمَا تَكْرَهُهُ مَعَ انْكِسَارِ الْخَاطِرِ. (٢) ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾(٣) أما الأسف بمعنى شدة الغضب فلم يرد في القرآن الكريم إلا مرة واحد وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤) أَيْ: فَلَمَّا أَغْضَبُونَا بِتَمَادِيهِمْ فِي الْكُفْرِ مَعَ تَوَالِي الْآيَاتِ عَلَيْهِمُ انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ. (٥) ورَوَى الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ غَاظُونَا وَأَغْضَبُونَا. وَرَوَى عَنْهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ: أَيْ أَسْخَطُونَا. قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: وَمَعْنَاهُمَا مُخْتَلِفٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ السَّخَطَ إِظْهَارُ الْكَرَاهَةِ، وَالْغَضَبَ إِرَادَةُ الِانْتِقَامِ. الْقُشَيْرِيُّ: والأسف ها هنا بِمَعْنَى الْغَضَبِ، وَالْغَضَبُ مِنَ اللَّهِ إِمَّا إِرَادَةُ الْعُقُوبَةِ فَيَكُونُ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ، وَإِمَّا عَيْنُ الْعُقُوبَةِ فَيَكُونُ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ. (٦)

وفي الحديث النبوي الشريف جاء الأسف بيانًا لحالة وجدانية انفعالية دالة على شدة الحزن ومنه الحديث: "عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –

(١) سورة طه الآية (٨٦).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٨١)
(٣) سورة الكهف الآية (٦).
(٤) سورة الزخرف الآية (٥٥).
(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤/ ٧٩
(٦) الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله محمد شمس الدين القرطبي ١٦/ ١٠١.

جَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ وَإِنَّهُ مَتَى يَقُومُ فِي مَقَامِكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ. فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ، فَقَالَتْ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبَاتُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». قَالَتْ: فَأَمَرُوا أَبَا بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً قَالَتْ: فَقَامَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، وَرِجْلَاهُ تَخُطَّانِ فِي الْأَرْضِ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ حِسَّهُ فَذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – أَنْ قُمْ كَمَا أَنْتَ. قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – حَتَّى قَامَ عَنْ يَسَارِ أَبِي بَكْرٍ جَالِسًا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – يُصَلِّي بِالنَّاسِ جَالِسًا، وَأَبُو بَكْرٍ قَائِمًا يَقْتَدِي أَبُو بَكْرٍ بِرَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَالنَّاسُ يَقْتَدُونَ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ". (١)

فَالأَسِيفُ هنا معناه:" سَرِيعُ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ، وَيُقَالُ: الأَسِيفُ: الْمَحْزُونُ كَالْمَقْهُورِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْعَبْدُ أَسِيفًا". (٢) وجاء بمعنى الغضب الشديد ومنه الحديث: "عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – عَنْ مَوْتِ الْفُجَاءَةِ، أَيُكْرَهُ؟. قَالَتْ: لِأَيِّ شَيْءٍ يُكْرَهُ؟ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: "رَاحَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَأَخْذُ أَسَفٍ لِلْفَاجِرِ". (٣) قال الزمخشري: "أَسف أَي أَخْذَة سخط من قَوْله تَعَالَى {فَلَّما آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} وَذَلِكَ لِأَن الغضبان لَا يَخْلُو من حزن ولهف فَقيل لَهُ أَسف. ثمَّ كثر حَتَّى اسْتعْمل فِي مَوضِع لَا مجَال للحزن

(١) المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي – باب (الإتمام بالإمام يصلي قاعدا) – الحديث رقم (٨٣٣)، ٢/ ٩٩.

(٢) شرح السنة – أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي ٣/ ٤٢٦.

(٣) السنن الكبرى – أبو بكر البيهقي – تح/ محمد عبد القادر عطا – باب في موت الفجأة – الحديث رقم (٦٥٧٢)، ٣/ ٥٣١.

فِيهِ. [١] ومن ذلك الحديث: "عَنْ هِلَالِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: كَانَتْ لِي غُنَيْمَةٌ تَرْعَاهَا جَارِيَةٌ لِي فِي قِبَلِ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ عَلَيْهَا ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ ذَهَبَ الذِّئْبُ مِنْهَا بِشَاةٍ وَأَنَا مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ فَصَكَكْتُهَا صَكَّةً فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – فَقُلْتُ: أَفَلَا أَعْتِقُهَا؟ قَالَ: "ائْتِنِي بِهَا" فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ: "أَيْنَ اللَّهُ؟ " قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ قَالَ: "مَنْ أَنَا؟ " قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: "أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مؤمنة". [٢]

الاصطراخ:

الاصطراخ هو تعبير عن حالة نفسية بصياح وبكاء ونواح شديد عند وجود مصيبة كبيرة لا مفر ولا منجا منها والتنادي بطلب الغوث من أمر فظيع. وهو في علم النفس: "حالة من الانفعال يكون معها تقلب سريع في المِزَاج أو مفاجئ عند البعض، وهذه الحالة يصاحبها نوبة متكررة". [٣]

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم تصويرًا للحالة النفسية التي سيكون عليها الكفار يوم القيامة وهم يعذبون في النار، حيث يكونون في حالة صراخ عنيف منكر خارج عن حد الاعتدال، وهو علامة على الانفعال النفسي، وعلامة على ما في النفس من الحسرة والألم على ما فات في حياتهم الدنيا مما جعلهم يكونون في هذا العذاب المستمر الذي لا نهاية له مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا

(١) الفائق في غريب الحديث – محمود بن عمر الزمخشري ١/ ٤٢.

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان– محمد بن حبان – باب ذكر إثبات الإيمان للمقر بالشهادتين – حديث رقم (١٦٥)، ١/ ٣٨٣.

(٣) ينظر: الصراخ في علم النفس – أكاديمية الكحلاوي للعلوم النفسية – مقال في النت بتاريخ ٢٥ فبراير، ٢٠٢٣

لِيَـذُوقُوا العَـذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَزِيـزاً حَكِـيماً﴾ (١) قال تعالى موضحًا حالتهم هذه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَـلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِـن نَّصِـيرٍ﴾ (٢) أي يوجدون الصراخ فيها بغاية ما يقدرون عليه من الجهد في الصياح بالبكاء والنواح. (٣) و"يَصْطَرِخُونَ مُبَالَغَةٌ فِي (يَصْرُخُونَ) لِأَنَّهُ افْتِعَالٌ مِنَ الصُّرَاخِ وَهُوَ الصِّيَاحُ بِشِدَّةٍ وَجُهْدٍ، فَالِاصْطِرَاخُ مُبَالَغَةٌ فِيهِ، أَيْ يَصِيحُونَ مِنْ شِدَّةِ مَا نَابَهُمْ. وَجُمْلَةُ رَبَّنا أَخْرِجْنا بَيَانٌ لِجُمْلَةِ يَصْطَرِخُونَ، يَحْسَبُونَ أَنَّ رَفْعَ الْأَصْوَاتِ أَقْرَبُ إِلَى عِلْمِ الله بندائهم ولإظهار عَدَمِ إِطَاقَةِ مَا هُمْ فِيهِ". (٤) يقول د/ عبدالعظيم المطعني مصورًا لهذا المشهد: "الكلمة – (يصطرخون) – بجرسها الغليظ الصاخب ورنينها الخشن الصاك الذي يكاد يخترق صماخ الأذن، تمثل الموقف أدق تمثيل. فإن الصراخ المنبعث من نفوس تئن تحت وطأة العذاب صراخ عال مدو يختلط بعضه ببعض – بدءا ونهاية – ويملأ المكان صخباً ورنيناً. وإنك لتلحظ أثر "الصاد" و "الطاء" في إبراز الصوت بمثل هذه الصورة الغليظة، فهل كنت تحس شيئاً من ذلك لو وُضعَت كلمة "يدعون" الهادئة الوديعة مكان "يصطرخون" – الهادرة العنيفة؟ وهل كنت تقف على بلوغ قلقهم الذي لولا كلمة "يصطرخون"

(١) سورة النساء الآية (٥٦).

(٢) سورة فاطر الآيتان (٣٦، ٣٧).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – الإمام/ برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ١٦/ ٦٢.

(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣١٨.

الملائمة لجوهم النفسي أدق ملاءمة وأبرعها؟". [١] فحين تسمع كلمة (يصطرخون) في الآية الكريمة "يخيّل إليك جرسها الغليظ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة كما تلقي إليك ظلّ الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه. وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون". [٢]

وقد ورد في كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ما يبرهن على شدة هذه الانفعالات النفسية في هذا المشهد العصيب – أعاذنا الله منه – قال: "حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَكَرِيَّا، ثَنَا الْحَسَنُ بْنُ حَسَّانَ، قَالَ: كُنَّا يَوْمًا عِنْدَ صَالِحٍ الْمُرِّيِّ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ وَيَعِظُ، فَقَالَ لِرَجُلٍ حَدَثٍ بَيْنَ يَدَيْهِ: اقْرَأْ يَا بُنَيَّ فَقَرَأَ الرَّجُلُ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [٣] فَقَطَعَ عَلَيْهِ صَالِحٌ الْقِرَاءَةَ فَقَالَ: وَكَيْفَ يَكُونُ لِلظَّالِمِينَ حَمِيمٌ أَوْ شَفِيعٌ وَالطَّالِبُ لَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ وَاللهِ لَوْ رَأَيْتَ الظَّالِمِينَ وَأَهْلَ الْمَعَاصِي يُسَاقُونَ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ إِلَى الْجَحِيمِ حُفَاةً عُرَاةً مُسْوَدَّةً وُجُوهُهُمْ مُزْرَقَّةً عُيُونُهُمْ ذَائِبَةً أَجْسَامُهُمْ يُنَادُونَ يَا وَيْلَاهُ يَا ثُبُورَاهُ مَاذَا نَزَلَ بِنَا؟ مَاذَا حَلَّ بِنَا؟ أَيْنَ يُذْهَبُ بِنَا؟ مَاذَا يُرَادُ مِنَّا؟ وَالْمَلَائِكَةُ تَسُوقُهُمْ بِمَقَامِعِ النِّيرَانِ فَمَرَّةً يُجَرُّونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَيُسْحَبُونَ عَلَيْهَا مُتَّكِئِينَ، وَمَرَّةً يُقَادُونَ إِلَيْهَا عُنُقًا مُقَرَّنِينَ، مِنْ بَيْنِ بَاكٍ دَمًا بَعْدَ انْقِطَاعِ الدُّمُوعِ وَمِنْ بَيْنِ صَارِخٍ طَائِرِ الْقَلْبِ مَبْهُوتٍ، إِنَّكَ وَاللهِ لَوْ رَأَيْتَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لَرَأَيْتَ مَنْظَرًا لَا يَقُومُ لَهُ بَصَرُكَ وَلَا يَثْبُتُ لَهُ قَلْبُكَ وَلَا يَسْتَقِرُّ لِفَظَاعَةِ هَوْلِهِ عَلَى قَرَارِ قَدَمُكَ. ثُمَّ

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية – د/ عبدالعظيم المطعني صـ ٢٦٣.

(٢) التصوير الفني في القرآن الكريم – سيد قطب صـ ٩٣.

(٣) سورة غافر الآية (١٨).

نَحَبَ وَصَاحَ يَا سُوءَ مَنْظَرَاهُ وَيَا سُوءُ مُنْقَلَبَاهُ وَبَكَى وَبَكَى النَّاسُ، فَقَامَ شَابٌّ بِهِ تَأْنِيثٌ فَقَالَ: أَكُلُّ هَذَا فِي الْقِيَامَةِ يَا أَبَا بِشْرٍ قَالَ: نَعَمْ وَاللهِ يَا ابْنَ أَخِي، وَمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُمْ يَصْرُخُونَ فِي النَّارِ حَتَّى تَنْقَطِعَ أَصْوَاتُهُمْ فَلَا يَبْقَى مِنْهَا إِلَّا كَهَيْئَةِ الْأَنِينِ مِنَ الْمُدْنِفِ، فَصَاحَ الْفَتَى إِنَّا لِلَّهِ وَاغْفَلَتَاهُ عَنْ نَفْسِي أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَا أَسَفَى عَلَى تَفْرِيطِي فِي طَاعَتِكَ يَا سَيِّدَاهُ وَا أَسَفَاهُ عَلَى تَضْيِيعِ عُمْرِي فِي دَارِ الدُّنْيَا ثُمَّ بَكَى وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْتَقْبِلُكَ فِي يَوْمِي هَذَا بِتَوْبَةٍ لَكَ لَا يُخَالِطُهَا رِيَاءٌ لِغَيْرِكَ، اللهُمَّ فَاقْبَلْنِي عَلَى مَا كَانَ مِنِّي وَاعْفُ عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ عَمَلِي، وَأَقِلْنِي عَثْرَتِي، وَارْحَمْنِي وَمَنْ حَضَرَنِي، وَتَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِجُودِكَ أَجْمَعِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، لَكَ أَلْقَيْتُ مَعَاقِدَ الْآثَامِ مِنْ عُنُقِي، وَإِلَيْكَ أَنْبَتُّ بِجَمِيعِ جَوَارِحِي صَادِقًا بِذَلِكَ قَلْبِي، فَالْوَيْلُ لِي إِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْبَلْنِي، ثُمَّ غُلِبَ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ فَحُمِلَ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ صَرِيعًا يَبْكُونَ عَلَيْهِ وَيَدْعُونَ لَهُ...". (١)

الترقب:

الترقب في اللغة أصله الدلالة "عَلَى انْتِصَابٍ لِمُرَاعَاةِ شَيْءٍ.... والرَّقُوبُ: النَّاقَةُ الْخَبِيثَةُ النَّفْسِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَشْرَبُ مَعَ سَائِرِ الْإِبِلِ، تَرْقُبُ مَتَى تَنْصَرِفُ الْإِبِلُ عَنِ الْمَاءِ. وَيُقَالُ: أَرْقَبْتُ فُلَانًا هَذِهِ الدَّارَ، وَذَلِكَ أَنْ تُعْطِيَهُ إِيَّاهَا يَسْكُنُهَا كَالْعُمْرَى، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ إِنْ مُتَّ قَبْلِي رَجَعَتْ إِلَيَّ، وَإِنْ مُتُّ قَبْلَكَ فَهِيَ لَكَ. وَهِيَ مِنَ الْمُرَاقَبَةِ، كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْقُبُ مَوْتَ صَاحِبِهِ. وَرِقَابُ الْمَزَادِ: لَقَبٌ لِلْعَجَمِ، لِأَنَّهُمْ حُمْرٌ. وَالرَّقِيبُ: السَّهْمُ الثَّالِثُ مِنَ السَّبْعَةِ الَّتِي لَهَا أَنْصِبَاءُ، كَأَنَّهُ يُرْقَبُ مَتَى يَخْرُجُ. وَالرَّقُوبُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ كَأَنَّهَا تَرْقُبُهُ لَعَلَّهُ يَبْقَى لَهَا". (٢)

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٦/ ١٦٥.

(٢) مقاييس اللغة (ر ق ب).

فالترقب هو عبارة عن حالة نفسية تدل على توقّع محبوب أو مكروهَ من جِهة ما فيشمل مشاعر الخوف والقلق والأمل والثقة وعندما يحدث ما يترقب حدوثه، تأتي خيبة الأمل لحدث سلبي، أو الارتياح لحدث إيجابي. ويظهر أثر ذلك في العين؛ لأن "العين تجحظ عِنْد الترقب وَعند الانكار للشَّيْء". (١)

وقد ورد التعبير عن هذه الحالة النفسية في القرآن الكريم رصدًا لبيان الحالة النفسية التي كان عليها سيدنا موسى – عليه السلام – بعد قتله القبطي، فـ "كان خائِفاً على نفسه من قتله قَوَدًا بالقبطي، وهذا الخوف أمر طبيعي لا ينافي الخصوصية، يَتَرَقَّبُ: ينتظر الأخبار عنه، أو ما يقال فيه، أو يترصد الاستفادة منه. وقال ابن عطاء: خائفاً على نفسه، يترقب نصرة ربه". (٢) فنصحه أحدُ الناصحين بالهرب من مصر لأنه مهدد بالقتل، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤) فالترقب في الآيتين الكريمتين كان عبارة عن بيان لحالة نفسية قوامها التلفت والخوف أو التوقع الدائم للشر مع الخوف المصاحب وما سيترتب على ذلك من النتائج بعد حادثة القتل. فلفظة (يترقب) "ترسم هيئة الحذر المتلفت. ولا نغفل هنا أنه خائف يترقب «في المدينة» موضع الأمن والاطمئنان عادة، وإن كان هذا خاصّا بالتعبير كله. ولكن العبارة هنا تبرز قيمة اللفظ

(١) غريب الحديث – ابن قتيبة ٢/ ٤٦١.
(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ٤/ ٢٣٩.
(٣) سورة القصص الآية (١٨).
(٤) سورة القصص الآيتان (٢٠، ٢١).

المصوّر للفزع في موطن الأمان!". [١] وهو "تعبير مصوّر لهيئة معروفة: هيئة المتفزع المتلفت المتوقع للشر في كل حركة، وتلك سمة العصبيين أيضًا". [٢]

وعلى هذا يرسم التعبير بـ (خائفاً يترقب) صورة الخائف المترقب الحذر الذي يمشي على مهل مشوب بالتفات مستمر يميناً وشمالاً، خوفًا من العدو الذي قد يلحقه، فلفظ يترقب "يصور هيئة القلِق الذي يتلفت ويتوجس، ويتوقع الشر في كل لحظة، وهي سمة انفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك، والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ، كما أنه يضخمها بكلمتي (في المدينة)، فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة، فإذا كان الخائف يترقب في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر"، أمّا من الناحية النفسية فقد ذهب علماء النفس إلى أن "الخاصية المميزة لاستجابة الخوف هي الانكماش والانسحاب وغالباً ما يبلغان الذروة في استجابة هروبية، حيث إن الترقب في الآية يمثل انكماش موسى واختفاءه عن أعين الناس خشية انكشاف أمره، فلمّا أحسّ بدنو الخطر وتوالت الشدائد عليه استحال انكماشه إلى ضرب من الهروب والخروج من المدينة من غير أن تنفك عنه سمة الترقب. [٣] وهكذا ورد بيان هذه الحالة التي كان عليها سيدنا موسى – عليه السلام – في السنة النبوية الشريفة في تفسير الآية الكريمة. [٤]

(١) التصوير الفني في القرآن الكريم صـ ٩٥.

(٢) السابق صـ ٢٠١.

(٣) تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم دراسة فنية – إعداد/ صالح ملا عزيز صـ ٤، ٥ – المكتبة الشاملة.

(٤) ينظر: السنن الكبرى – النسائي – حديث الفتون – حديث رقم (١١٢٦٣)، ١٠/ ١٧٢، ومسند أبي يعلى – أبو يعلى أحمد بن علي الموصلي – أول مسند ابن عباس حديث رقم (٢٦١٨)، ٥/ ١٠.

التأفف:

التأفف كلمة تدل على حالة نفسية أو جدانية يكون عليها الإنسان إذا سمع ما يغضبه أو رأى ما يكرهه فيتضجر بذلك، وأصله: "أف يئفّ أفا، وقالوا يؤف أيضاً، إذا تأفَفَ من كَرْبٍ أو ضَجَر". (١) أو هو الكلام الغليظ المستقبح الذي يقال لما يُستثقل ويُضجر منه. وأصل هذا أن الإنسان إذا وقع عليه الغبار، أو شيء يتأذى به نفخه فقال: أُف. أو هو: كلمة كراهية يقصد بها إظهار السخط وقبح الرد. أو هو: صوت الإنسان الضاجر – أف – عند التردد أدناه، يضع التأفف صاحبه في حالة عجز وغياب عن المشهد، ويبعده عن محاولة التعامل مع ما يزعجه أو المتعة إلى تغييره. تكملةً لذلك، يُشكِّل إخراج النَّفس من طريقة الجسم في التخلص من بعض الثقل البرازيلي. لكن قد يؤدي ذلك إلى التعامل مع القلق والتوتر والذعر وشاعر سيء متنوع آخر. (٢) فعندما يفاجأ الإنسان من موقف ما ولا يلقى هذا الموقف أذنًا صاغية لديه فإنه يقوم بإصدار "إيماءة الزفير" أو إيماءة التأفف من خلال قيامه بضم شفتيه ونفث الزفير للتعبير عن عدم رغبته في سماع هذا الخبر أو مشاهدة هذا الموقف الذي شاهده، وفي أحيان أخرى يقوم الأشخاص الذين يتعرضون كثيرًا لضغوط العمل بإصدار هذه الإيماءات، وتتسم هذه الإيماءة بأهميتها في الكشف عن شخصية صاحبها من خلال بيان عدم مقدرته على الصبر وتحمل ضغوط العمل أو عدم الصبر على سماع خبر معين وغير ذلك من الأمور، وتعطى في كثير من الأحيان انطباعًا سلبيًّا عن صاحبها عن طريق إعطاء فكره عنه بأنه صاحب مزاج سيء ولا يطاق، وكذلك لكمية الزفير في هذه الإيماءة علاقه بمدى

(١) ينظر: جمهرة اللغة – ابن دريد – باب الثلاثي الهمزة والفاء (أ ف ف)، ومقاييس اللغة (أ ف)، ولسان العرب باب الفاء فصل الهمزة (أ ف ف).

(٢) معجم الأصوات صـ ٦٦ – المكتبة الشاملة.

الضغوط والانفعالات التي يشعر فيها من صدرت عنه هذه الإيماءة، فكلما كانت نسبه الزفير كبيره كانت الضغوط كثيره والعكس صحيح. (١)

وقد جاء التعبير عن هذه الحالة النفسية التي تعد أول التضجر ولم تصل إلى التضجر كاملا مرتين في القرآن الكريم ناهيًا في الأولى منهما عن هذا الصفة مع الوالدين عند كبر السن والشيخوخة، فلا يجوز مطلقًا مجرد التأفف والتضجر، سواء أكان بالكلام؛ كأن يقول: "أُف"، أم حتى بالنَّفَس أي مجرد النفخة. وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ (٢) فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ أي: لا تسمعهما قولا سيئا فيه أدنى تبرّم، حتى ولا التأفف وهو التضجر والتألم الذي هو أدنى مراتب القول السيء وذلك في أي حال، ولا سيما حال الضعف والكبر والعجز عن الكسب؛ لأن الحاجة إلى الإحسان حينئذ أشد وأولى وألزم؛ لذا خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى البر، للضعف والكبر. (٣)

أما الثانية فقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤) قال الزمخشري: "أُفٍّ صوت إذا صوّت به علم أنّ صاحبه متضجر، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق

(١) لغة الجسد مقال في النت بتاريخ ١٣ سبتمبر ٢٠١٣م إيماءة الإنزعاج (التنهيدة الشديدة).
(٢) سورة الإسراء الآيتان (٢٣، ٢٤).
(٣) التفسير المنير للزحيلي ١٧/ ٨٤.
(٤) سورة الأنبياء الآيتان (٦٦، ٦٧).

وزهوق الباطل، فتأفف بهم. واللام لبيان المتأفف به. أي: لكم ولآلهتكم هذا التأفف". (١) أي تبّا لكم وقبحًا لآلهتكم، وهذا التأفف والتضجر لكم ولها لعبادتكم إياها غير الله تعالى. (٢)

وبهذا المعنى وهو أن التأفف والتأفيف إنما يكون في حال الأمر المكروه المستقبح المستقذر وردت الكلمة في الأحاديث النبوية الشريفة ومنها الحديث: "عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَدَمْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، قَطُّ، وَمَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا كُنْتَ فَعَلْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَهُ؟". (٣) والحديث: "عن ابْنِ شِهَابٍ أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ – ﷺ – أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ، أُمَّ بَنِي أَبِي طَلْحَةَ، دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ – ﷺ – بِمَعْنَى حَدِيثِ هِشَامٍ غَيْرَ أَنَّ فِيهِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ، فَقُلْتُ لَهَا أُفٍّ لَكِ أَتَرَى الْمَرْأَةُ ذَلِكِ". (٤) قال الشارح:(أف لك) معناه استحقار لها ولما تكلمت به وهي كلمة تستعمل في الاحتقار والاستقذار والإنكار، قال الباجي: والمراد بها هنا الإنكار. والحديث: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – فَلَمْ يَكَدْ يَرْكَعُ، ثُمَّ رَكَعَ، فَلَمْ يَكَدْ يَرْفَعُ، ثُمَّ رَفَعَ، فَلَمْ يَكَدْ يَسْجُدُ، ثُمَّ سَجَدَ، فَلَمْ يَكَدْ يَرْفَعُ، ثُمَّ رَفَعَ، فَلَمْ يَكَدْ يَسْجُدُ، ثُمَّ سَجَدَ، فَلَمْ يَكَدْ يَرْفَعُ، ثُمَّ رَفَعَ وَفَعَلَ فِي الرَّكْعَةِ الْأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ نَفَخَ فِي آخِرِ سُجُودِهِ، فَقَالَ: «أُفْ أُفْ»، ثُمَّ قَالَ: «رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ أَلَمْ

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٣/ ١٢٥.

(٢) التفسير المنير للزحيلي ١٥/ ٥٤.

(٣) الأدب المفرد – محمد بن إسماعيل البخاري– الحديث رقم (٢٧٧)، صـ ١٠٥.

(٤) صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ) – مسلم بن الحجاج النيسابوري– (باب وجوب الغسل على المرأة بخروج) – الحديث رقم (٣١٤)، ١/ ٢٥١.

تَعِذْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟» فَفَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – مِنْ صَلَاتِهِ، وَقَدْ أَمْحَصَتِ الشَّمْسُ". (١)

البهت:

يدل البهت على الحيرة والاندهاش. (٢) وهو عبارة حالة نفسية لا شعورية تنتاب الإنسان عند رؤيته أو سماعه أمرًا ربما يكون خارقًا أو غير متوقع حدوثه كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣) أي: انقطع وذهبت حجّته. والبهت: الحيرة عند استيلاء الحجّة، والبهت أيضا: مواجهة الرجل بالكذب عليه. (٤) قال الراغب: "والبهت أن تفعل بالإنسان ما يحيره، وسمي الكذب المستقبل به الإنسان بهتانا؛ لتحير صاحبه فيه". (٥) ففي قوله: {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ} تصوير حالة الاندهاش من قوة الدليل العقلي الذي استدل به سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وحجة دامغة للخصم جعلته في حالة حيرة واندهاش من قوة الدليل المستمد من الصورة الكونية التي لا تقع ضمن سلطة النمرود، وهي حجة عقلية ساطعة مفهومة للعوام والخواص، وهي أشد إقناعًا وإفحامًا. (٦)

(١) سنن أبي داود – أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني – (باب من قال يركع ركعتين – الحديث رقم (١١٩٤)، ١/ ٣١٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة (ب هـ ت).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٨).

(٤) التبيان في تفسير غريب القرآن – أبو العباس، شهاب الدين، ابن الهائم صـ ١١٤.

(٥) تفسير الراغب الأصفهاني ومقدمته ١/ ٥٣٦.

(٦) ينظر: الصورة الفنية في القرآن الكريم صـ ٤٤٤.

وقد جاء اللفظ في الحديث النبوي الشريف مصورًا لحالة الحيرة والاندهاش هذه ومنه الحديث: "عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ: كُنْتُ قَاعِدَةً أَغْزِلُ وَالنَّبِيُّ – ﷺ – يَخْصِفُ نَعْلَهُ فَجَعَلَ جَبِينُهُ يَعْرَقُ وَجَعَلَ عَرَقُهُ يَتَوَلَّدُ نُورًا فَبُهِتُّ فَنَظَرَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – فَقَالَ: " مَالَكِ يَا عَائِشَةُ بُهِتِّ؟ " قُلْتُ: جَعَلَ جَبِينُكَ يَعْرَقُ وَجَعَلَ عَرَقُكَ يَتَوَلَّدُ نُورًا". (١)

التوجس:

الوجس: فزْعة فِي الْقلب، وَقد أوجَسَ القلبُ فزَعاً وتوجّسَت الأذُن – سمعَت فزَعاً من صَوت أَو غير ذَلِك. (٢) قال الله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ (٣) والإنسان يتوجس الصوت، إذا وقع في أذنه. قال ذو الرمة:

وقد توجس ركزاً مقفر ندس بنبأة الصوت ما في سمعه كذب (٤)

قال ابن منظور: "أَوْجَسَ القلبُ فَزَعاً أَحَسَّ به وفي التنزيل العزيز (فأَوْجَسَ منهم خيفة) قال أَبو إِسحق: معناه فأَضْمَر منهم خَوْفاً وكذلك التوَجُّس. وقال في موضع آخر: معنى أَوْجَسَ وقع في نفسه الخوفُ. الليث: الوَجْس فَزْعة القلب، والوَجْس الفَزَع يقع في القلب أَو في السمع من صوت أَو غير ذلك". (٥) فَالْإِيجَاسُ اسْتِشْعَارُ الْخَوْفِ (٦) وبهذا المعنى ورد في القرآن الكريم للتعبير عن الحالة التي كان عليها موسى – عليه السلام – حين تحداه فرعون وجمع له السحرة،

(١) ينظر: السنن الكبرى – أبو بكر البيهقي – باب الحيض على الحمل – الحديث رقم (١٥٤٢٧)، ٧/ ٦٩٣

(٢) المخصص – ابن سيدة ٣/ ٣٥٥.

(٣) سورة طه الآية (٦٧).

(٤) الإبانة في اللغة العربية العوتبي ٤/ ٥٣٢، ٥٣٣.

(٥) لسان العرب باب السين فصل الواو (و ج س).

(٦) مفاتيح الغيب ٢٢/ ٧٣.

فقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ (١)

أي: وقع في نفس موسى شيء من الرهبة والخوف.. حتى يكاد الأمر يفلت من يده. (٢) ومثله ما جاء في الحديث: "قَدْ بَعَثَ اللَّهُ – جَلَّ وَعَلَا – الْمَلَائِكَةَ إِلَى رُسُلِهِ فِي صُوَرٍ لَا يَعْرِفُونَهَا كَدُخُولِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى رَسُولِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يَعْرِفْهُمْ حَتَّى أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً". (٣) فالوجس هو الصوت الخفي، والتوجس التسمع، والإيجاس وجود ذلك في النفس، قال: فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، فالوجس قالوا هو حالة تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر. (٤) لِأَنَّهُ لَمَّا أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ظَهَرَ أَثَرُهَا عَلَى مَلَامِحِهِ، فَكَانَ ظُهُورُ أَثَرِهَا. (٥)

الاستحياء:

الاستحياء في اللغة ضد الوقاحة. ومنه قَوْلُهُمُ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ اسْتِحْيَاءً. (٦) وأصله الامتناع عن الشيء، خوفًا من مواقعة القبيح، قال أهل اللغة: أصل الاستحياء من الحياة، واستحيا الرجل لقوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع العيب، فالحياء من قوة الحس ولطفه. وهو خُلُق رفيع يساعد على التمنع عن كلّ فعل قبيح والتقصير في حقّ الآخرين، وهو أحد صفات الأنبياء وعباد الله الصالحين،

(١) سورة طه الآيتان (٦٧، ٦٨).

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٨/ ٨٠٤.

(٣) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون – السمين الحلبي – تح د/ أحمد محمد الخراط ١/ ٢٢١.

(٤) الموسوعة القرآنية ٨/ ٥٨١.

(٥) التحرير والتنوير ١١٨/١٢.

(٦) معجم مقاييس اللغة (ح ي ي).

حيث قال أبو سعيدٍ الخدري عن رسول الله – ﷺ – أنّه: "كان أشدَّ حياءً من العذراءِ في خِدرِها، وكان إذا كرِه شيئاً عُرِف في وجهِه". (١)

هو تعبير عن حالة نفسية للفرد يظهر أثرها مباشرة في الوجه أو القول ولها تأثير كبير في سلوكه، فربما يأخذ شكل الصمت أو قلة الكلام أو التأدب فيه أو البعد عن الفحش والوقاحة. وقد عرفوه بأنه: "افتعال من الحياء وهو تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به". (٢) أو هو: "انفعال مركب من عناصر الخجل والخوف، وهو يعتري الإنسان إذا خاف أن يرى فيه الناس ما يعاب أو يذم، وهو من السمات الإنسانية الحميدة؛ لأنه يدفع الإنسان إلى تجنب الأفعال القبيحة المعيبة". (٣) لذا قال ابن تيمية: "الْحَيَاءُ مُشْتَقٌّ مِنْ الْحَيَاةِ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ الْحَيَّ يَكُونُ صَاحِبُهُ حَيًّا فِيهِ حَيَاءً يَمْنَعُهُ عَنْ الْقَبَائِحِ فَإِنَّ حَيَاةَ الْقَلْبِ هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ الْقَبَائِحِ الَّتِي تُفْسِدُ الْقَلْبَ". (٤) ومحلّه الوجه ومنبعه من القلب. و"الْحَيَاءَ جِبِلَّةٌ فِي الْإِنْسَانِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُكْثِرُ فِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِلُّ ذَلِكَ فِيهِ، وَهَذَا دَلِيلٌ صَحِيحٌ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَيْسُوا كُلُّهُمْ عَلَى مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْحَيَاءِ، فَلَمَّا اسْتَحَالَ اسْتِوَاؤُهُمْ عَلَى مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فِيهِ، صَحَّ أَنَّ مَنْ وُجِدَ فِيهِ أَكْثَرُ، كَانَ إِيمَانُهُ أَزِيدَ، وَمَنْ وُجِدَ فِيهِ مِنْهُ أَقَلُّ، كَانَ إِيمَانُهُ أَنْقَصَ، وَالْحَيَاءُ فِي نَفْسِهِ: هُوَ الشَّيْءُ الْحَائِلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ مَا يُبَاعِدُهُ مِنْ رَبِّهِ مِنَ الْمَحْظُورَاتِ،

(١) صحيح ابن حبان – باب (ذكر الخبر المدحض قول من زعم هذا) – حديث رقم (٦٣٠٦)، ١٤/ ٢١٣

(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن – ابن الهائم صـ ٦١.

(٣) القرآن وعلم النفس صـ ١٠٥.

(٤) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٠٩.

فَكَأَنَّهُ – ﷺ – جَعَلَ تَرْكَ الْمَحْظُورَاتِ شُعْبَةً مِنَ الْإِيمَانِ بِإِطْلَاقِ اسْمِ الْحَيَاءِ عَلَيْهِ". (١)

وفي القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة قد ذُكِرت تلك الصِّفة التي ترصد الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان كسلوك محمود للإنسان في المشي وفي غيره، إلا أنه في مشي النساء خاصة أفضل بحيث يجب اتباعه؛ وذلك لما له من ظلال نفسية ترتبط بالقيم والأخلاق المجتمعية، فمن ذلك قوله تعالى في وصف مشية ابنة شعيب – عليه السلام –: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) وقد اختلف العلماء في وصف مشيتها هذه فقيل: تمشي على استحياء، أي: في رعشة واضطراب. (٣) وقيل: تمشي على حياء، تتعثر فيه قدماها، وتقصر به خطاها، ويضطرب له كيانها. (٤) وقيل: على خجل واحتشام. (٥) وقيل: على تحشم وعفاف شأن النساء الفضليات. (٦) وقيل: وَاضِعَة ثوبها على وَجهها لَيست بسلفع من النَّاس خراجة ولاجة. (٧) وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة،

(١) صحيح ابن حبان ١/ ٣٨٩.
(٢) سورة القصص الآية (٢٥).
(٣) التفسير القرآني للقرآن ٧/ ٣١.
(٤) السابق ١٠/ ٣٣٦.
(٥) مخطوطة الجمل – معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن – حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل ١/ ٤٦٥.
(٦) التفسير الوسيط – الشيخ/ محمد سيد طنطاوي ١٠/ ٣٩٦.
(٧) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – تح/ سامي محمد سلامة ٦/ ٢٢٨، والدر المنثور في في التفسير بالمأثور – جلال الدين السيوطي ٦/ ٤٠٥.

وخصوصًا في النساء. [١] وقد ورد أنها لما كانت تمشي أمامه تدله على الطريق هبت الريح فكشفت ساقيها قال لها موسى: امشي ورائي ودليني على الطريق بحصى ترميها نحو الطريق وهذا الذي دلها على أمانته لما وصفته لأبيها بأنه {قَوِيٌّ أَمِينٌ} [٢] وفي هذا دليل على صفة الحياء والتأدب وغض البصر، كل هذا لم يظهر إلا بذكر هيئة المشي التي كانت عليها ابنةُ شعيب في سؤلها لموسى – عليه السلام – وكما قال ابنُ كثير في تفسيره: إنه مشي الحرائر. [٣] وكأنه يبين الفرق بينه وبين مشي البغايا والإماء المائلات المميلات كما وصفهم النبي – ﷺ – وقد جلَّى ذلك قولُ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أَنَّهُ قَالَ: "كَانَتْ مستتِرَة بِكُمِّ درْعها". [٤] كما سبق أن ذكرنا. وعلماء النفس والفراسة يقولون: إن مشي المرء يعطي مدلولا على شخصيته، بل يعدونه ميزانًا للاستقرار والاتزان النفسي. [٥] كما أن طريقة المشي تعطي الانطباع الأول الذي يظل شديد الأهمية في العلاقات الإنسانية، فلو مشى الشخص بتثاقل وكأنه يجر رجليه، محنيًّا ظهرُه، كان هذا دليلًا على الانطواء والكآبة، وبعكسه لو مشى معتدلَ القامة بخطى ثابتة، فذلك دليل على اتزان الشخص واستقراره النفسي وقوته النفسية، وكذا إذا مشت النساء على استحياء كان ذلك دليلا على التأدب والاتزان النفسي، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي صـ ٦١٤.

(٢) أيسر التفاسير للجزائري ٤/ ٦٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٢٨

(٤) السابق نفسه.

(٥) نقلا عن مقال بعنوان: جميل الدلالة في مشي النبي من حديث هند بن أبي هالة – رحاب رحاب بنت محمد حسان – مكتبة صيد الفوائد.

قَـالُوا سَـلَامًا﴾ [١] وَالْمَعْنَى أَنَّ مَشْيَهُمْ يَكُونُ فِي لِينٍ وَسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ وَتَوَاضُعٍ، وَلَا يَضْرِبُونَ بِأَقْدَامِهِمْ وَلَا يَخْفُقُونَ بِنِعَالِهِمْ أَشَرًا وَبَطَرًا، وَلَا يَتَبَخْتَرُونَ لِأَجْلِ الْخُيَلَاءِ. [٢] وهو دليل على التواضع، ولين الجانب، وسماحة الخلق. وهو أيضًا خلاف مشي الهرولة الوارد في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [٣] فقَوْلُهُ: يُهْرَعُونَ، أَيْ: يُسْرِعُونَ وَيُهَرْوِلُونَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ، وَمِنْهُ قَوْلُ مُهَلْهِلٍ:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ وَهُمْ أُسَارَى تَقُودُهُمْ عَلَى رَغْمِ الْأُنُوفِ [٤]

وقد كثر الحض على هذه الصفة (الاستحياء) بصفة عامة وليس في المشي خاصة في الأحاديث النبوية الشريفة ومنها الحديث: "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ: "مَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ". [٥] والحديث: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ". [٦]

---

(١) سورة الفرقان الآية (٦٣).

(٢) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٤٨٠.

(٣) سورة هود الآية (٧٨)

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢/ ١٨٨، والبيت في: ديوان مهلهل بن ربيعة – شرح وتقديم/ طلال حرب صـ ٥١.

(٥) الأدب المفرد – الحديث رقم (٦٠١) صـ ٢١٠، وسنن الترمذي – تح/ بشار – باب الحياء حديث رقم (٤١٨٥) ٢/ ١٤٠٠

(٦) سنن الترمذي – تح/ بشار – باب ما جاء في الحياء – حديث رقم (٢٠٠٩)، ٣/ ٤٣٣. ٤٣٣.

وإذا كان الأمر كذلك فهل هناك تعارض بين الحث على هذه الصفة وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [١] أقول: لا تعارض؛ لأن الآية الكريمة جاءت ردًا على الكفرة حيث قالوا: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت. فجاءت على سبيل المقابلة. [٢] فنفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها؛ وقد جاء ذلك صريحًا في السنة، كما في الحديث: "عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا". [٣] والحياء الثابت لله ليس كحياء المخلوق؛ لأن حياء المخلوق انكسار لما يَدْهَمُ الإنسان ويعجز عن مقاومته؛ فتجده ينكسر، ولا يتكلم، أو لا يفعل الشيء الذي يُستحيا منه؛ وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير محله. وقيل: "لعل المراد من عدم الاستحياء هنا الكرم والفضيلة والتي تمنع من الوقوع فيما يعاب كما قال ابن جزي، وليس الذل والانكسار كما قال الجمل، ولا الترك اللازم للانقباض كما قال الألوسي. فاللَّه من كرمه وفضله على عباده لا يمسك عن ضرب المثل بالبعوضة والنملة والعنكبوت لما فيها من حكمة، وما وراءها من بيان للناس وفائدة". [٤]

وكذا لا تعارض مع النفي عنها في الحديث: "عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَاجِرِ، قَالَ: سَمِعْتُ صَفِيَّةَ، تُحَدِّثُ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ – ﷺ – عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ؟ فَقَالَ: «تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا، فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ،

(١) سورة البقرة من الآية (٢٦).

(٢) أوضح التفاسير ١/ ٦.

(٣) صحيح ابن حيان – باب (ذِكْرُ الْإِخْبَارِ عَمَّا يُسْتَحَبُّ لِلْمَرْءِ عِنْدَ إِرَادَةِ الدُّعَاءِ رَفْعُ الْيَدَيْنِ) – حديث رقم (٨٧٦)، ٣/ ١٦٠.

(٤) التضمين النحوي في القرآن الكريم – محمد نديم فاضل ١/ ٣٠٤.

ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ دَلْكًا شَدِيدًا حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا» فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: وَكَيْفَ تَطَهَّرُ بِهَا؟ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ، تَطَهَّرِينَ بِهَا» فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَأَنَّهَا تُخْفِي ذَلِكَ تَتَبَّعِينَ أَثَرَ الدَّمِ، وَسَأَلَتْهُ عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ؟ فَقَالَ: «تَأْخُذُ مَاءً فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ أَوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ» فَقَالَتْ عَائِشَةُ: "نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ". (١) لأن الحياء لا يجب أن يكون صفة ملازمة للإنسان على كل حال، فالحياء في العلم ليس مطلوبًا إذ به يفوت المطلوب وينتفي معه التفقه في الدين خاصة مما قد يوقع فيما ليس مباحًا.

وإذا كان الله – ﷻ – قد حض على هذه الصفة الدالة على الحالة النفسية التي يجب أن يكون عليه المسلم في مشيته، فإن – ﷻ – قد نهى عما عداها وهو المشي الذي يضرب وجه الأرض تيهًا وفرحًا وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٢) كما نهى – ﷻ – عن مشية المختال الفخور المزهو بنفسه تعاليًا وتكبرًا وهي أيضًا مشية معبرة عن حالة نفسية انفعالية تبعث في نفوس الآخرين انفعالا مغايرًا وهو البعد والنفور عنه والاشمئزاز منه بل والسخرية منه؛ لأنها من مساوئ الأخلاق حيث قال في كتابه العزيز: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٣) ففي الآية دليل على ذم الخيلاء والمرح والعجب وذلك من خلال ذم هيئة المشية. والاختيال هو: الزهو في المشي،

(١) صحيح مسلم – الحديث رقم (٣٣٢)، ١/ ٢٦١)

(٢) سورة الإسراء الآية (٣٧)

(٣) سورة لقمان الآية (١٨).

والفخر والافتخار بالحسب والنسب والمال بتعداد ذلك وذكره. [١] وقيل: "الْمُخْتَالُ ذُو الْخُيَلَاءِ وَالْكِبْرِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ بِالْمُخْتَالِ الْعَظِيمَ فِي نَفْسِهِ الَّذِي لَا يَقُومُ بِحُقُوقِ أَحَدٍ. قَالَ الزجاج: وإنما ذكر الاختيال هاهنا؛ لأن المختال يأنف من أقاربه إذا كانوا فقراء، ومن جيرانه إذا كانوا ضعفاء فلا يحسن عشرتهم. [٢] وهو المشي الموصف في القرآن الكريم بالتمطي في قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾. [٣] أي: {ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ} رغم كفره وتكذيبه {يَتَمَطَّى} أي يتبختر ويختال في مشيته إعجابًا بنفسه وتكبرًا، وهي مشية يهتزّ فيها المطا وهو الظهر؛ لأنّ المتبختر يَمُدُّ خطاه معجبًا بنفسه. قال أبو حيان: "إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ وَكَادَتْ أَنْ تُصَرِّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: يَتَمَطَّى. فَإِنَّهَا كَانَتْ مِشْيَتَهُ وَمِشْيَةَ قَوْمِهِ بَنِي مَخْزُومٍ، وَكَانَ يُكْثِرُ مِنْهَا". [٤] وقد بين عبد الكريم الخطيب طريقة هذه المشية فقال: "حين أعطى ظهره معرضًا عن آيات الله، أقبل على أهله، ومجتمع ناديه، يمشى معجبًا بنفسه، نافخًا صدره، مادّا عنقه، فاردًا جناحيه، كأنه القائد المظفر، وقد عاد من الميدان يسوق بين يديه الغنائم والأسرى". [٥] فالقرآن يفسر بعضه بعضًا. وفي الحديث: "عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءَ، وَخَدَمَتْهُمْ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ أَبْنَاءُ فَارِسَ وَالرُّومِ، سَلَّطَ اللَّهُ شِرَارَهَا عَلَى

(١) أيسر التفاسير للجزائري ١/ ٤٧٦.
(٢) مفاتيح الغيب ١٠/ ٧٨.
(٣) سورة القيامة الآيات (من ٣١ إلى ٣٥).
(٤) البحر المحيط ١٠/ ٣٥٢.
(٥) التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١٣٤١.

خِيَارِهَا". (١) وَالْمُطَيْطَاءُ: مِشْيَةٌ فِيهَا تَبَخْتُرٌ وَمَدُّ يَدَيْنِ، وَالتَّمَطِّي مِنْ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُ إِذَا تَمَطَّى مَدَّ يَدَيْهِ. (٢)

وعلى هذا يكون الاستحياء أو الحياء، والاختيال صفتين تحملان دلالتين نفسيتين متناقضتين، وواصفتين ومعبرتين خير تعبير عن الحالة النفسية لمن اتصف بواحدة منهما مدحًا، أو ذمًا واستهجانًا.

التشاؤم أو التطير:

يعتبر مفهوما التشاؤم والتفاؤل من المفاهيم الأساسية في علم النفس كونهما يساعدان على التعرف على مسارات بناء الشخصية وتكونها وأهم السمات التي تتحكم في استجاباتنا وسيرورة سلوكنا وذلك من خلال معاشين مختلفين، التشاؤم حيث يستدل عليه من خلال الوضعيات والاستجابات السلبية لجل المثيرات الداخلية والخارجية، والتفاؤل وهو مؤشر إيجابي لجل الاستجابات والمعاشات النفسية وهو يعبر عن جودة الحياة بالنسبة للأفراد والجماعات. (٣)

وقد عرفوا التشاؤم بأنه "استعداد نفسي عند صاحبه لرؤية الجانب السيء من أي موضوع والتخلي عن الجوانب الإيجابية، أو هو: توقع سلبي للأحداث القادمة يجعل الفرد ينتظر حدوث الأسوأ ويتوقع الشر والفشل وخيبة الأمل". (٤) ومن مظاهره اضطراب الوجدان وتغلب الغم والحزن والقلق وضيق الصدر؛ لأن وجوده يكون سببًا في وجود ما يُحزِن ويضر فتحدث بسببه تلك الحالة النفسية.

---

(١) شرح السنة للبغوي – باب تغير الناس وذهاب الصالحين – حديث رقم (٤٢٠٠)، (١٤/ ٣٩٥).

(٢) السابق نفسه.

(٣) التفاؤل والتشاؤم في المنظور النفسي – أ/ صالحي سعيدة – مجلة دفاتر علم الاجتماع ISSN : 2335-1527صـ ١٤٢ بتصرف.

(٤) السابق صـ ١٤٧

ومن هنا فإن التفاؤل والتشاؤم مفهومان لهما أهمية كبرى في السلوك الإنساني حيث يؤثر كل منهما في الحالة النفسية للفرد وتوقعاته للحاضر والمستقبل سواء أكانت تفاؤلية أم تشاؤمية. (١) ولم يرد هذا اللفظ الدال على الحالة النفسية لصاحبها الموصوف بها في القرآن الكريم، وإنما ورد نظيره أو مرادفه وهو التطير كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٢) فَمَعْنَى يَطَّيَّرُوا بِمُوسى: يَحْسَبُونَ حُلُولَ ذَلِكَ بِهِمْ مُسَبَّبًا عَنْ وُجُودِ مُوسَى وَمَنْ آمَنَ بِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ كَانُوا مُتَعَلِّقِينَ بِضَلَالِ دِينِهِمْ، وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ إِذَا حَافَظُوا عَلَى اتِّبَاعِهِ كَانُوا فِي سَعَادَةِ عَيْشٍ، فَحَسِبُوا وُجُودَ مَنْ يُخَالِفُ دِينَهُمْ بَيْنَهُمْ سَبَبًا فِي حُلُولِ الْمَصَائِبِ وَالْإِضْرَارِ بِهِمْ فَتَشَاءَمُوا بِهِمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ سَبَبَ الْمَصَائِبِ هُوَ كُفْرُهُمْ وَإِعْرَاضُهُمْ؛ لِأَنَّ حُلُولَ الْمَصَائِبِ بِهِمْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُسَبَّبًا عَنْ أَسْبَابٍ فِيهِمْ لَا فِي غَيْرِهِمْ. وَهَذَا مِنَ الْعَمَايَةِ فِي الضَّلَالَةِ فَيَبْقَوْنَ مُنْصَرِفِينَ عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَسْبَابِ الْحَقِيقِيَّةِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ التَّطَيُّرُ مِنْ شِعَارِ أَهْلِ الشِّرْكِ؛ لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى نِسْبَةِ الْمُسَبَّبَاتِ لِغَيْرِ أَسْبَابِهَا، وَذَلِكَ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ الَّذِينَ وَضَعُوا لَهُمْ دِيَانَةَ الشِّرْكِ وَأَوْهَامَهَا".(٣) وَأَصل التطير: "التفاؤل بالطير ثمَّ اسْتعْمل فِي كل مَا يتفاءل بِهِ ويتشاءم".(٤) في حين ورد اللفظ نفسه (التشاؤم) ونظيره (التطير) معًا في السنة النبوية الشريفة على سبيل النهي عنه؛ لأنه "مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِين كَانُوا يُوجِبُونَ ذَلِكَ، وَلَا يُضِيفُونَ التَّدْبِيرَ إِلَى اللهِ – ﷻ –، فَمَنْ

(١) السابق نفسه.

(٢) سورة الأعراف الآية (١٣١).

(٣) التحرير والتنوير ٩/ ٦٦.

(٤) المعجم الوسيط (ط ي ر).

فعلا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ اسْتَحَقَّ الْوَعِيدَ دُونَ الثَّنَاءِ". (١) والنهي عن التشاؤم يتضمن الحث على مقابله وهو التفاؤل، ومن ذلك الحديث: "عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: "لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ، وَالشُّؤْمُ فِي ثَلاَثٍ: فِي المَرْأَةِ، وَالدَّارِ، وَالدَّابَّةِ". (٢) والحديث: "عنْ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا اشْتَدَّ بِرَسُولِ الله – ﷺ – وَجَعُهُ قَالَ: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ"، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَقَالَ: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ"، فَعَاوَدَتْهُ مِثْلَ مَقَالَتِهَا، فَقَالَ: "أَنْتُنَّ صَوَاحِبَاتُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ". قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – أَنَّهَا قَالَتْ: قَدْ عَاوَدْتُ – ﷺ – ذَلِكَ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى مُعَاوَدَتِهِ إِلَّا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ يَتَشَاءَمَ النَّاسُ بِأَبِي بَكْرٍ – ﷺ – وَإِلَّا أَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ أَحَدٌ إِلَّا تَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَعْدِلَ النَّاسُ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – عَنْ أَبِي بَكْرٍ – ﷺ –". (٣)

كما ورد مرادفه وهو التطير أو الطيرة في الحديث: "حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ وَهُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَغَيْرُهُ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – قَالَ: "لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَةَ". (٤) قال الشارح: "(طيرة) هي التشاؤم بالشيء وهو

(١) شعب الإيمان ٢/ ٣٩٦.

(٢) صحيح البخاري – باب الطيرة – حديث رقم (٥٧٥٣)، ٧/ ١٣٥.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي – باب ما جاء في تنبيه الإمام على من يراه حديث رقم (١٦٥٨٢)، ٨/ ٢٦١.

(٤) صحيح مسلم – باب (استخلاف الإمام إذا عرض له عذر) – حديث رقم (٢٢٢٠)، ٤/ ١٧٤٣.

مصدر تطير، يقال: تطير طيرة، وتخير خيرة. ولم يجيء من المصادر هكذا غيرهما. وأصله فيما يقال التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه ليس به تأثير في جلب نفع أو دفع ضر". (١) ومنه الحديث: "عن معاوية بن الحكم السلميّ الصحابي – ﷺ – قال: قلتُ: يا رسول الله! منَّا رجالٌ يتطيرون، قال: "ذلكَ شَيْءٌ يَجِدُونَه في صُدُورِهِمْ، فَلا يصدَّنَّهم". (٢) كما ورد نقيضها وهو (التفاؤل) في السنة النبوية الشريفة، وهو: حالة وجدانية للفرد في توقعه للخير والأمل لمجريات الأحداث الحالية والمستقبلية. (٣) ففي الحديث: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: "لَا عَدْوَى ولا طيرة، ويعجبنى الفال". (٤) وفيه أيضا: "أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – يَقُولُ: «لَا طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ»، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةٌ صَالِحَةٌ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ". (٥)

(١) السابق نفسه بالهامش.

(٢) الأذكار للنووي – أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي – بابُ (ما يقولُ إذا تطيَّرَ بشيءٍ) – حديث رقم (١٦٤١) صـ ٥١٣.

(٣) التفاؤل والتشاؤم في المنظور النفسي صـ ١٤٦.

(٤) صحيح ابن حبان – ٥٦ـ كِتَابُ الْعَدْوَى وَالطِّيَرَةِ وَالْفَأْلِ – حديث رقم (٦١١٤)، ١٣/ ٤٨١.

(٥) الأدب المفرد – البخاري – باب الطيرة – حديث رقم (٩١٠) صـ ٣١٣.

المبحث الثاني

الدلالة النفسية غير المباشرة في القرآن والسنة

ويقصد بها الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية الشريفة ولم تكن في الأصل قد وضعت لتدل على حالة نفسية أو شعورية معينة، وإنما كان التعبير بها نيابة عنها تحاشيًا لاستعمال لفظ آخر صريح غير ملائم أو غير مقبول نفسيًّا، أو غير لائق في العرف اللغوي أو المجتمع المسلم الذي يحض على مكارم الأخلاق ومراعاة الآداب والذوق العام، أو كان مما يثير في النفس اشمئزازًا أو نفورًا وإعراضا، فعبر بها عنها على سبيل المجاز مراعاة لهذه الآداب العامة والقيم المجتمعية الخاصة، أو بيانًا وتوضيحًا وتصويرًا أو تشخيصًا وتجسيدًا لحالة نفسية ما.

ومن هذه الدلالات النفسية غير المباشرة ما يلي:

أولا: المجاز ودوره في بيان الحالة النفسية في القرآن والسنة:

يعد المجاز هو الأداة الكبرى من أدوات التعبير؛ لأنه تشبيهات وأخيلة وصور مستعارة لإشارات ترمز إلى الحقيقة المجردة بالأشكال المحسوسة، وقد تعود عقل السامع العربي على النفاذ في الصورة الحسية إلى دلالاتها النفسية، وبذلك حقق المجاز في أوجز عبارة ما لم تستطع الكلمات الصريحة التحدث عنه بألفاظها الصريحة التي لا تلقى قبولا في النفس لبعدها عن القيم والأخلاق.

أ. التعبير عن الغرائز الجنسية:

لقد خضعت بعض الألفاظ في اللغة العربية لظاهرة الحظر أو التحريم لما تحمله من دلالة غير محببة للنفس، فجاء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وفق لغة العرب في تجنب استعمال هذه الألفاظ غير اللائقة أو غير المقبولة نفسيا لما تثيره من الغرائز والشهوات المكبوتة، فاستعملا في التعبير عنها ألفاظا كريمة لا تخدش الحياء عن طريق الكناية أو المجاز الذي كانت له أهمية بالغة في التعبير عنها بغير الألفاظ التي وضعت لها في أصل اللغة؛ مراعاة للحالة

النفسية، ولما في التصريح بها من إثارة للغرائز المكبوتة وبعدًا عن القيم والآداب الإسلامية والأخلاق المجتمعية. فبعض الألفاظ العربية اكتسبت في الإسلام معاني جديدة مراعاة للياقة اللغوية والعرف الاجتماعي والآداب العامة وابتعادا عن الألفاظ الأصلية التي وضعت لها في أصل اللغة، لما في النفس من اشمئزاز أو نفور وإعراض أو إثارة للغرائز المكبوتة، فاستعاض عنها الإسلام بألفاظ أخرى كريمة تأديبا وتهذيبا للنفس البشرية، وتربية للنشء على حسن السلوك وإجادة التعبير، ودفعا للغرائز المكبوتة، وتنمية للقيم، ومراعاة لمشاعر الآخرين، وكان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أشدا حرصا على مراعاة هذه القيم السامية فاستعملا ألفاظا وعبارات ملائمة لنفسية المجتمع والقيم الإسلامية فلا تؤلم النفس ولا تخدش الحياء.

فقد كنّى القرآن الكريم عن العملية الجنسية بألفاظ كريمة مراعاة للياقة اللغوية والعرف الاجتماعي بدلا من التصريح باللفاظ المباشرة صونًا للآداب ومراعاة للقيم وكبتًا للنفس، ومن ذلك نجد أن أسماء (الفرج) كثيرة في اللغة العربية، وفي علة كثرتها قال أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠ هـ): "حدثني ابن فارس: جرى بين يديه أسماء الفرج وكثرتها، فقال بعض الحاضرين: ماذا أرادت العرب بتكثيرها مع قبحها؟ فقال: لما رأوا الشيء قبيحًا جعلوا يكنون عنه، وكانت الكناية عند فشوها تصير إلى حد الاسم الأول فينتقلون إلى كناية أخرى، فإذا اتسعت أيضًا رأوا فيها من القبح مثل ما كنوا عنه من أجله، وعلى هذا، فكثرت الكنايات، وليس غرضهم تكثيرها". [١] وتعرف هذه الظاهرة باسم (اللامساس) [٢]

(١) أخلاق الوزيرين – أبو حيان التوحيدي صـ ٣٨.

(٢) يعرف اللامساس في علم اللغة بأنه: التراكيب التي يتجنبها الأفراد فيما بينهم لاعتبارات شتى. وهو مصطلح بولينزي Polynesion teirm يطلق على كل ما هو مقدس، أو ما يحرم لمسه أو الاقتراب منه لأسباب سواء أكان ذلك إنسانا أم شيئا آخر (دور الكلمة في =

أو الحظر اللغوي وهو عبارة عن مجموعة من الألفاظ الحقيقية أو المجازية التي يحظر استعمالها في سياقات تواصلية معينة، لأسباب اجتماعية، أو أخلاقية، أو ثقافية، أو ذوقية، أو نفسية، أو لغير ذلك من الألفاظ التي تنفر من سماعها الطباع السليمة.."وتخضع هذه الظاهرة لثقافة المجتمع ونمط تفكيره وحسه التربوي، حيث تعدل اللغة بإشراف المجتمع عن استعمال بعض الكلمات لما لها من دلالات مكروهة أو يمجها الذوق الإنساني وهو ما يعرف باللامساس، فيلجأ المجتمع اللغوي إلى تغيير ذلك اللفظ ذي الدلالة المكروهة أو غير المقبولة نفسيا بلفظ آخر ذي دلالة يستحسنها الذوق، فإن اللامساس يؤدي إلى تحايل في التعبير أو ما يسمى بالتلطف، وهو في حقيقته إبدال الكلمة الحادة بالكلمة الأقل حدة، وهذا النزوع في نحو التماس التلطف في استعمال الدلالات اللغوية هو السبب في تغير المعنى. (١)

فهو – إذن – "دراسة الكلام المحظور اجتماعيًا والتي تعرف في اللغة الإنجليزية (Taboo). إنه يرتبط بدراسة الأخلاق، ولا نقصد الأخلاق الجاهزة أو المفروضة، أو الأخلاق القاهرة أو المجمدة أو الثابتة وإنما الأخلاق التي يفرضها الموقف الكلامي". (٢) فالكلمات التي تتصل بالعيوب، والعاهات الجسمية، وأسماء الأمراض، وأجزاء معينة من جسم الإنسان تلجأ المجتمعات إلى التعبير عنها بكلمات أخرى تكون أكثر غموضا وأوسع دلالة، وهذا الحظر في تلك الألفاظ مدفوع بأسباب اجتماعية تخص المجتمع ونظراته ومعتقداته وثقافته

=

اللغة صـ ٥٩٣)، وللامساس أسماء عدة منها: الكلام الحرام، ومنها الكلام غير اللائق، والمعنى الانعكاسي (ينظر: اللغة والمجتمع "رأي ومنهج"– د/ محمود السعران صـ ١٢٩).

(١) علم الدلالة أصوله ومباحثه – منقور عبد الجليل صـ ٧٥ بتصرف.

(٢) اللامساس في الفكر اللغوي الحديث – د/ محمد محمود السيد أبو حسين صـ ٩.

إزاء تلك الألفاظ، وتختلف مقاييس هذا الكلام المحظور باختلاف العصور، وباختلاف الطبقات الاجتماعية في المجتمع الواحد، كما تختلف باختلاف الجماعة اللغوية ولغتها. (١)

ومن الألفاظ التي كنّى بها القرآن الكريم عن العملية الجنسية: الحرث، الدخول، الإفضاء، المباشرة، الملامسة، الرفث، السر. وفيما يلي توضيح ذلك:

١. **(الحرث)** كما في قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ (٢)

وأصل الحرث في اللغة هو: "الزرع، والحراث الزراع". (٣) وإنما استعمل في القرآن الكريم للموضع الذي يكون منه الولد وهو القبل، فـ (نساؤكم حرث لكم) معناه: مواضع حرث، وهذا مجاز شبهن بمواضع الحرث؛ لما يلقى في أرحامهن من النطف التي يكون منها النسل كالبذر الذي يلقى في الأرض فيكون منه الزرع. وقد كان الرجال في قريش "يَشْرَحُونَ النِّسَاءَ شرحا (أَي يطأونهن وَهُنَّ مُسْتَلْقِيَاتٍ عَنْ أَقْفِيَتِهِنَّ) وَمُقْبِلَاتٍ وَمُدْبِرَاتٍ وَمُسْتَلْقِيَاتٍ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْهُمُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فَذَهَبَ يَصْنَعُ بِهَا ذَلِكَ فَأَنْكَرَتْهُ عَلَيْهِ وَقَالَتْ: إِنَّمَا كُنَّا نُؤْتَى عَلَى حَرْفٍ فَاصْنَعْ ذَلِكَ وَإِلَّا فَاجْتَنِبْنِي حَتَّى شَرَى أَمْرُهُمَا (أَيْ تَفَاقَمَ اللَّجَاجُ) فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيءَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ أَيْ مُقْبِلَاتٍ كُنَّ أَوْ مُدْبِرَاتٍ أَوْ مُسْتَلْقِيَاتٍ يَعْنِي بِذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الْوَلَدِ". (٤) وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنْ جَابِرٍ – ﷺ – قَالَ: كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ

(١) ينظر: اللسانيات الاجتماعية في الدراسات العربية الحديثة التلقي والتمثلات – د/ حسن كزار صـ ٥٠.

(٢) سورة البقرة من الآية (٢٢٣).

(٣) الصحاح (باب الثاء فصل الحاء ح ر ث).

(٤) التحرير والتنوير ٢/ ٣٧٣.

أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ". (١) وفي الحديث: "أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَتِ الْيَهُودُ: إِذَا أَتَى الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنْ قِبَلِ دُبُرِهَا كَانَ الْحَوَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا} قَالَ: قَائِمًا وَقَاعِدًا وَبَارِكًا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَأْتَى". (٢)

٢. **(الدخول)** كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ﴾ (٣) فالدخول في الآية الكريمة: كناية عن الجماع (٤) وفي الحديث: "عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ – ﷻ – {مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ}: "الدُّخُولُ النِّكَاحُ يُرِيدُ بِالنِّكَاحِ الْجِمَاعَ، وَقَالَ فِي الْمَسِّ وَاللَّمْسِ وَالْإِفْضَاءِ نَحْوَ ذَلِكَ"، وَبَلَغَنِي عَنْ طَاوُسٍ أَنَّهُ قَالَ: " الدُّخُولُ الْجِمَاعُ". (٥)

٣. **(المس)** كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ (٦) أي والحال أنه لم يباشرني بالحلال رجل، وإنما قيل بشر مبالغة في تنزهها

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/ ٩٢.

(٢) السنن الكبرى – النسائي – باب (قوله تعالى: نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) – حديث رقم (١٠٩٧٢)، ١٠/ ٣٢.

(٣) سورة النساء من الآية (٢٣).

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – أبو السعود العمادي ٢/ ١٦٢، أوضح التفاسير – محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب ١/ ٩٥.

(٥) السنن الكبرى للبيهقي – باب (ما جاء في معنى الخول المشروط) – حديث رقم (١٣٩١٩)، ٧/ ٢٦٢

(٦) سورة آل عمران من الآية (٤٧).

من مبادئ الولادة، وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا أي ولم أكن زانية، والجملة عطف على لم يمسسني داخل معه في حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالحلال وهو كناية عن ذلك كما في قوله تعالى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ﴿ولامَسْتُمُ النِّساءَ﴾ ونحوه كما قيل دخلتم بهن وبني عليها". (١)

ومنه الحديث: "عَنْ مَالِكٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ – ﷺ – فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – ﷺ – رَسُولَ اللهِ – ﷺ – عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: " مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ ". (٢)

والحديث: "عَنْ عُمَارَةَ بْنِ رَاشِدٍ، قَالَ: سُئِلَ أَبُو هُرَيْرَةَ: هَلْ يَمَسُّ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَزْوَاجَهُمْ؟ وَقَدْ كَانَ أَدْرَكَ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: «نَعَمْ بِذَكَرٍ لَا يَمَلُّ، وَفَرْجٍ لَا يُحْفَى، وَشَهْوَةٍ لَا تَنْقَطِعُ» "(٣)

٤. **(المباشرة)** ففي قوله تعالى: ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٤)، وكذا قوله تعالى (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) وفي الحديث: "عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،

(١) روح المعاني ٨/ ٣٩٦.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي – حديث رقم (١٥٣٨٠)، ٧/ ٦٨٠.

(٣) البعث والنشور للبيهقي – أبو بكر البيهقي – باب (ما جاء في صفة حور العين، والولدان) حديث رقم (٣٦٦) صـ ٢٢٢.

(٤) سورة البقرة من الآية (١٨٧).

عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ – ﷺ –: " أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَالسُّنَّةُ فِي الْمُعْتَكِفِ أَنْ لَا يَخْرُجَ إِلَّا لِلْحَاجَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا، وَلَا يَعُودُ مَرِيضًا، وَلَا يَمَسَّ امْرَأَةً، وَلَا يُبَاشِرْهَا، وَلَا اعْتِكَافَ إِلَّا فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ، وَالسُّنَّةُ فِي الْمُعْتَكِفِ أَنْ يَصُومَ ". أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ دُونَ قَوْلِهِ: وَالسُّنَّةُ فِي الْمُعْتَكِفِ إِلَى آخِرِهِ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ مِنْ قَوْلِ عُرْوَةَ، وَاللهُ أَعْلَمُ". (١)

٥. **(الرفث)** ففي قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (٢)، فالْآيَةَ الْكَرِيمَةَ سِيقَتْ لِبَيَانِ جَوَازِ الْجِمَاعِ فِي لَيْلَةِ الصِّيَامِ، وَذَلِكَ صَادِقٌ بِآخِرِ جُزْءٍ مِنْهَا، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى بَعْدَهُ مِنَ اللَّيْلِ قَدْرُ مَا يَسَعُ الِاغْتِسَالَ، فَيَلْزَمُ مِنْ جَوَازِ الْجِمَاعِ فِي آخِرِ جُزْءٍ مِنَ اللَّيْلِ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُصْبِحَ جُنُبًا. (٣) وكذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (٤) قَالَ: الرَّفَثُ الْجِمَاعُ، وَالْفُسُوقُ: الْمَعَاصِي وَالْجِدَالُ قَوْلُكَ: لَا وَاللَّهِ، بَلَى وَاللَّهِ ". (٥) وأصل الرفث في اللغة قَوْلُ الْفُحْشِ، وَأَنْشَدَ الزَّجَّاجُ:

ورب أسراب حجيج كقلم ... عَنِ اللَّغَا وَرَفَثِ التَّكَلُّمِ

---

(١) شعب الإيمان – أبو بكر البيهقي – باب (فضل فيمن فطر صائما) – حديث رقم (٣٦٧٦)، ٥/ ٤٣٣.

(٢) سورة البقرة من الآية (١٨٧).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤/ ٤٤٤.

(٤) سورة البقرة الآية (١٩٧).

(٥) الآثار – أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري صـ ١١٢.

يُقَالُ رَفَثَ فِي كَلَامِهِ يَرْفُثُ وَأَرْفَثَ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْقَبِيحِ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ﴾ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ أَنْشَدَ وَهُوَ مُحْرِمٌ:

وَهُنَّ يمشين بنا هميسا ... أن يصدق الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسًا

فَقِيلَ لَهُ: أَتَرْفُثُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا الرَّفَثُ مَا كَانَ عِنْدَ النِّسَاءِ فَنَبَتَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الرَّفَثِ هُوَ قَوْلُ الْفُحْشِ ثُمَّ جُعِلَ ذَلِكَ اسْمًا لِمَا يُتَكَلَّمُ بِهِ عِنْدَ النِّسَاءِ مِنْ مَعَانِيَ الْإِفْضَاءِ، ثُمَّ جُعِلَ كِنَايَةً عَنِ الْجِمَاعِ وَعَنْ كُلِّ مَا يَتْبَعُهُ. فإن قيل: لم كنى هاهنا عَنِ الْجِمَاعِ بِلَفْظِ الرَّفَثِ الدَّالِّ عَلَى مَعْنَى الْقُبْحِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ أَفْضىٰ بَعْضُكُمْ إِلىٰ بَعْضٍ﴾ ، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاها﴾ ، ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ﴾ ، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ ، ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ﴾. جَوَابُهُ: السَّبَبُ فِيهِ اسْتِهْجَانُ مَا وُجِدَ مِنْهُمْ قَبْلَ الإباحة كَمَا سَمَّاهُ اخْتِيَانًا لِأَنْفُسِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (١)

وفي الحديث: "عَنْ سَيَّارٍ أَبِي الْحَكَمِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ». (٢) قَوْلُهُ: «فَلَمْ يَرْفُثْ»، قِيلَ: الرَّفَثُ: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْجِمَاعِ، وَقَالَ الأَزْهَرِيُّ: الرَّفَثُ: كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّ مَا يُرِيدُهُ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ". (٣)

٦. **(اللباس)** كما في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ ففي تَشْبِيه الزَّوْجَيْنِ بِاللِّبَاسِ وُجُوهًا أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ يَعْتَنِقَانِ، فَيَضُمُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا جِسْمَهُ إِلَى جِسْمِ صَاحِبِهِ حَتَّى يَصِيرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ كَالثَّوْبِ الَّذِي يَلْبَسُهُ، سُمِّيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِبَاسًا، قَالَ الرَّبِيعُ: هُنَّ فِرَاشٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِحَافٌ لَهُنَّ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ، يُرِيدُ أَنَّ كُلَّ

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ٥/ ٢٧٠.

(٢) شرح السنة للبغوي – باب (وجوب الحج وفضله) – حديث رقم (١٨٤١)، ٧/ ٤.

(٣) السابق نفسه.

وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَسْتُرُ صَاحِبَهُ عِنْدَ الْجِمَاعِ عَنْ أَبْصَارِ النَّاسِ وَثَانِيهَا: إِنَّمَا سُمِّيَ الزَّوْجَانِ لِبَاسًا لِيَسْتُرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَمَّا لَا يَحِلُّ، كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ «مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ أَحْرَزَ ثُلُثَيْ دِينِهِ» وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهَا لِبَاسًا لِلرَّجُلِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَخُصُّهَا بِنَفْسِهِ، كَمَا يَخُصُّ لِبَاسَهُ بِنَفْسِهِ، وَيَرَاهَا أَهْلًا لِأَنْ يُلَاقِيَ كُلُّ بَدَنِهِ كُلَّ بَدَنِهَا كَمَا يَعْمَلُهُ فِي اللِّبَاسِ وَرَابِعُهَا: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ سَتْرُهُ بِهَا عَنْ جَمِيعِ الْمَفَاسِدِ الَّتِي تَقَعُ فِي الْبَيْتِ، لَوْ لَمْ تَكُنِ الْمَرْأَةُ حَاضِرَةً، كَمَا يَسْتَتِرُ الْإِنْسَانُ بِلِبَاسِهِ عَنِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَكَثِيرٍ مِنَ الْمَضَارِّ وَخَامِسُهَا: ذَكَرَ الْأَصَمُّ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَانَ كَاللِّبَاسِ السَّاتِرِ لِلْآخَرِ فِي ذَلِكَ الْمَحْظُورِ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ، وَهَذَا ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَوْرَدَ هَذَا الْوَصْفَ عَلَى طَرِيقِ الْإِنْعَامِ عَلَيْنَا، فَكَيْفَ يُحْمَلُ عَلَى التَّسَتُّرِ بِهِنَّ فِي الْمَحْظُورِ. (١)

٧. **(الإفضاء)** كما في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ (٢) الافضاء هو: أن يولج فرجه في فرجها حتى يتماسا وهذا يوجب الغسل عليهما، وهو المراد به في الآية الكريمة. (٣) وأَصله: الْوُصُول إِلَى الشَّيْء بسعة، من الفضاء. وأفضى إِلَى امْرَأَة: فِي بَاب الْكِنَايَة أبلغ وَأقرب إِلَى التَّصْرِيح من قَوْلهم: خلا بهَا. (٤) وفي الحديث: "عَنْ عُمَرَ بْنِ حَمْزَةَ الْعُمَرِيِّ، ثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: " إِنَّ أَعْظَمَ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ يُفْضِي إِلَى امْرَأَةٍ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يُفْشِي

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ٥/ ٢٦٩.
(٢) سورة النساء من الآية (٢١).
(٣) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي – أبو منصور الأزهري –صـ ٢٩.
(٤) الكليات صـ ١٥٤.

سِرَّهَا " [١] وفي الحديث أيضا: "عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلاَ تَنْظُرُ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي الثَّوْبِ الوَاحِدِ، وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الوَاحِدِ". [٢]

٨. **(التغشية)** كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [٣]، فكّنى عن الجماع، وفي الحديث: " وَأَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَارِثِ الْفَقِيهُ، ثنا أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حِبَّانَ، ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، أنا أَبُو عَامِرٍ مُوسَى بْنُ عَامِرٍ، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، أنا سَالِمٌ، أَنَّهُ سَمِعَ الْحَسَنَ، يَقُولُ: " لَا بَأْسَ أَنْ يَغْشَى الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ وَلَيْسَ بِحَضْرَتِهِ مَاءٌ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ حَيْضَتِهَا فِي سَفَرٍ إِذَا تَيَمَّمَتْ ".[٤] قال الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) في الكناية عما يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه: "هي من سَنَنِ العرب والله كريم يكّني. [٥] وقال في موضع آخر: "لعل أسماء النكاح تبلغ مئة كلمة عن ثقات الأئمة، بعضها أصلي وبعضها مكنًّى". [٦]

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي – باب (ما يكره من ذكر الرجل إصابته أهله) – الحديث رقم (١٤٠٩٧)، ٧/ ٣١٣.

(٢) سنن الترمذي – (بَابٌ فِي كَرَاهِيَةِ مُبَاشَرَةِ الرِّجَالِ الرِّجَالَ وَالمَرْأَةِ الْمَرْأَةَ) – حديث رقم (٢٧٩٣)، ٤/ ٤٠٦

(٣) سورة الأعراف الآية (١٨٩).

(٤) السنن الكبرى للبيهقي – باب (الحائض لا توطأ حتى تطهر وتغتسل) – حديث رقم (١٤٨٤)، ١/ ٤٦٣.

(٥) فقه اللغة وسر العربية – الثعالبي صـ ٣٠٠.

(٦) السابق صـ ١٤٤.

ب. التعبير عن بعض الأجزاء من جسم الإنسان بغير لفظه مراعاة للمشاعر النفسية:

ومن ذلك إطلاق اسم أحد أعضاء الجسم على عضو آخر، مثل استخدام كلمة (صدر أو نحر) بدلًا من (ثدي)، ومن ذلك ما جاء في الحديث الشريف من استعمال لفظ (النحر) مرادا به الثدي منعا لإثارة الشهوة: "حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْمُعَلَّى الدِّمَشْقِيُّ، ثنا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، ثنا عَبْدُ الْغَفَّارِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَرَشِيُّ، ثنا الْحَارِثُ بْنُ الْحَارِثِ الْغَامِدِيُّ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: مَا هَذِهِ الْجَمَاعَةُ؟، قَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ اجْتَمَعُوا عَلَى صَابِئٍ لَهُمْ، قَالَ: فَأَشْرَفْتُ فَإِذَا بِرَسُولِ اللهِ – ﷺ – يَدْعُو النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ حَتَّى ارْتَفَعَ النَّهَارُ وَتَصَدَّعَ عَنْهُ النَّاسُ، فَإِذَا امْرَأَةٌ قَدْ بَدَا نَحْرُهَا تَحْمِلُ قَدَحًا وَمِنْدِيلًا فَتَنَاوَلَهُ مِنْهَا فَشَرِبَ وَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «يَا بُنَيَّةُ خَمِّرِي عَلَيْكِ نَحْرَكِ وَلَا تَخَافِي عَلَى أَبِيكِ غَلَبَةً وَلَا ذُلًّا» ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذِهِ؟، قَالُوا: هَذِهِ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ – ﷺ –". (١) والحديث: "عن عَبَّاسِ بْنِ سَهْلٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَا: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – نَخْلًا لِبَنِي سَاعِدَةَ، وَفِيهِ امْرَأَةٌ مِنْ كِنْدَةَ يُقَالُ لَهَا: أُمَيْمَةُ ابْنَةُ النُّعْمَانِ بْنِ شَرَاحِيلَ فِي بَيْتٍ فَقَالَ: "هَبِي لِي نَفْسَكِ" فَقَالَتْ: وَهَلْ تَهَبُ الْمَلِكَةُ نَفْسَهَا لِلسُّوقَةِ؟ فَضَرَبَ بِيَدِهِ نَحْرَهَا لِيَسْكُنَ فَقَالَتْ: إِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، فَقَالَ: "لَقَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ" وَأَمْسَكَ يَدَهُ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: "يَا أَبَا أُسَيْدٍ جَهِّزْهَا، وَأَلْحِقْهَا وَاكْسُهَا رَازِقِيَّتَيْنِ". (٢)

(١) المعجم الكبير للطبراني – باب ذكر سن زينب ووفاتها وأخبارها – حديث رقم (١٠٥٢)، ٢٢/ ٤٣٢.

(٢) شرح مشكل الآثار – باب (بيان ما يشكل مما روي عليه) حديث رقم (٦٤٢) – ٢/ ١٠١.

جـ: التصوير والتجسيم ودورهما في إيضاح الحالة النفسية:

يعد أسلوب التصوير أو التجسيم والتشخيص من أبرز الأساليب وأدقها التي استعملها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في وصف الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان في موقف ما، وكان للسياق دوره البارز في بيان وتحديد هذا الوصف بالدقة المطلوبة، وقد أثبت علماء النفس أن الانفعالات النفسية على اختلاف ألوانها تصاحبها مظاهر جسمية خارجية تبدو على قسمات الوجه وملامح العين ونبرات الصوت وهيئة البدن وحركات الجسم، وقد استعمل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بعضاً من هذه المظاهر في التعبير عن الحالات النفسية فأبرزاها بوصف دقيق وتعبير بليغ يظهر ما لها من تأثيرات وجدانية تجعل الصورة أقدر على تقريب المعاني إلى الأذهان وأدعى لإثارة الخيال على التمثيل، وكأنها صورة شاخصة أو متحركة، ويعدلان بها عن التعبير المجرد إلى الرسم المصور؛ لتكون أقرب إلى الوصف وأبلغ في تصوير الحالة النفسية فتظهرها في صورة المشاهد للحوادث الواقعة، ومن ذلك ما يلي:

١. جاء تصوير الندم الذي هو عبارة عن: "حالة انفعالية تنشأ عن شعور الإنسان بالذنب وأسفه على ارتكابه، ولومه لنفسه على ما فعل، وتمنيه لو أنه لم يفعل ذلك". [١] في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ليعبر عن الشعور الذي يحس به الإنسان إذ يواجه مصيره المحتوم ويتذكر ما مضى آسفاً عليه ومتمنياً لو لم يقدم عليه، بتعبيرات عدة في صورة تشخيصية بديعة تظهر الحالة النفسية التي يكون عليها النادم على فعله، وكانت هذه الصورة التشخيصية أبلغ في بيان ووصف حالته أبلغ من التعبير بالكلمات، ومن ذلك في القرآن الكريم ما يلي:

(١) القرآن وعلم النفس صـ ٩٥.

– قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ [1] فالآية الكريمة تصوّر ندم الظالمين يوم القيامة في حركة انفعالية هي عض اليدين لترمز إلى الندم الفاجع والحسرة اللاذعة بعد فوات الأوان، وممّا زاد في عمق التصوير تلك النبرات الأسيفة والنغمات الحزينة التي يبثها الظالم في حوار ذاتي يجريه مع نفسه ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾. فبعد أن صور النص الظالم يعض يديه ندماً وتفريجاً راح يصوره ناطقاً بكلمات وعبارات ملؤها الأسف والأسى بدلالاتها اللفظية وبإيقاعاتها المديدة المتموجة، وهذا اللون من الحوار يشبه ما يُسمّى اليوم في النقد القصصي بعملية الارتجاع الفني وهي "عملية نفسية تقوم بها ذاكرة الشخصية القصصية ليتم من خلالها استدعاء أحداث الماضي وجعلها تنشط في نطاق الزمن الحاضر وأحداثه". [2] فعض اليد كناية عن شدة الغيظ والحسرة لأنها من روادفها، فتذكر المرادفة ويراد بها المردوف، فيرتفع الكلام بذلك في طبقة الفصاحة، ويجد السامع في نفسه من الروعة ما لا يجده عند اللفظ المكنى عنه. [3] يقول محمد الأمين الشنقيطي: "فَقَوْلُهُ: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ النَّدَمِ وَالْحَسْرَةِ، لِأَنَّ النَّادِمَ نَدَمًا شَدِيدًا، يَعَضُّ عَلَى يَدَيْهِ، وَنَدَمُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحَسْرَتُهُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ، جَاءَ مُوَضَّحًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُونُسَ: وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ. وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ سَبَأٍ: وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا. وَقَوْلِهِ

(١) سورة الفرقان الآيات (٢٧، ٢٨، ٢٩).

(٢) تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم صـ ٩.

(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ٤/ ٩٢.

تَعَالَى: قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا الْآيَةَ. وَالْحَسْرَةُ أَشَدُّ النَّدَامَةِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ". (١) لأنه في موقف حسرة وندم على الفرصة التي فاتته ولن تعود، والخطأ الذي لا يمكن تداركه؛ لذلك يُعذِّب نفسه قبل أن يأتيه العذاب. فيعضُّ على يديْه معًا، فكأن الأمر المُفْزِع الذي يعاينه بلغ الغاية؛ لذلك عضَّ على يديه ليبلغ الغاية في المعضوض، وهو العاضّ والمعضوض، ولا يُعذِّب نفسه بهذه الطريقة إلا مَنْ يئس من النجاة. ثم يُبيِّن علة ذلك (يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت في حدث مخصوص وفي شخص بعينه، فإنها تعمّ كل مَنْ فعل هذا، فالعبرة كما يقولون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا جزاء كل ظالم حَادَ عن الجادة. (٢) ففي هذه الآية الكريمة يرسم القرآن صورة حسية لمشهد الندم والحسرات الذي تلا نزول العذاب على اتباعهم طريق من أضلهم وابتعادهم عن طريق الحق في اتباع الرسل، وهذه من الدلالات الفطرية الباقية لنا من الالتقاء الطبعي في المخاطبات، في كل الأجناس.

– ومثله قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٦/ ٤٥.

(٢) السابق ١٧/ ١٠٤٢٤.

يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١) فهذا انفعال حركي ليس فيه كلام يقال، ولكن فيه واقع يرى، ومع ذلك فهو ليس سرًا. (٢) فـ "عملية عض الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية قسرية. أي أن الفكر لا يرتبها؛ فليس هناك من يرضي أن يظل مرتكبًا لعملية عض أصابعه، فعض الأصبع يسبب الألم، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل في الانفعال. ومن أين يجيء الغيظ؟" (٣) والأنامل: أطراف الأصابع وعَضُّها من الغيظ عادة معروفة حينما يتعرض الإنسان لموقف يصعُب عليه التصرف فيه فيعضُّ على أنامله عَضًّا يناسب الموقف والحدث، فإنْ كان الحدث أعظمَ ناسبه أنْ يعضّ يده لا مجرد أصابعه، فإنْ عظم عَضَّ على يديْه معًا، وعض الأنامل طبيعية فطرية لا تختلف فيها أمة عن أمة، بل هي في كل الأجناس، مثل عض الإنسان لأنامله إذا عمل شيئًا ما كان يصح أن يعمله، فإذا كان الشيء عظيمًا فهو لا يكتفي بالأنملة، بل يمسك يده كلها ويعضها. فعض الْأَنَامِلِ إذن تصوير لحالة نفسية في صورة تشخيصية أو حركة تجسيدية غير شعورية قد تكون محسوسة وقد تكون غير محسوسة يظهر من خلالها شِدَّةَ الْغَيْظِ وَالتَّحَسُّرِ من المنافقين، عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى تَبْلُغَ تِلْكَ الشِّدَّةُ إِلَى عَضِّ الْأَنَامِلِ، وهو عادة يفعلها المغيظ المحنق، إذا لم ينل من عدوه منالاً أو اشْتَدَّ غَيْظُهُ وَعَظُمَ حُزْنُهُ عَلَى فَوَاتِ مَطْلُوبِهِ. والمغتاظ إذا اشتد به الغيظ يعض أصبعه على عادة البشر. فعض الأصبع "كُنِّيَ بِهِ عَنْ لَازَمِهِ فِي الْمُتَعَارَفِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اضْطَرَبَ بَاطِنُهُ مِنَ

(١) سورة آل عمران الآيات من (١١٨ إلى ١٢٠).
(٢) تفسير الشعراوي ١/ ٤١١.
(٣) السابق ٣ / ١٧١٤.

الِانْفِعَالِ صَدَرَتْ عَنْهُ أَفْعَالٌ تُنَاسِبُ ذَلِكَ الْإِنْفِعَالَ، فَقَدْ تَكُونُ مُعِينَةً عَلَى دَفْعِ انْفِعَالِهِ كَقَتْلِ عَدُوِّهِ، وَفِي ضِدِّهِ تَقْبِيلُ مَنْ يُحِبُّهُ، وَقَدْ تَكُونُ قَاصِرَةً عَلَيْهِ يَشْفِي بِهَا بَعْضَ انْفِعَالِهِ، كَتَخَبُّطِ الصَّبِيِّ فِي الْأَرْضِ إِذَا غَضِبَ، وَضَرْبِ الرَّجُلِ نَفْسَهُ مِنَ الْغَضَبِ، وَعَضِّهِ أَصَابِعَهُ مِنَ الْغَيْظِ، وَقَرْعِهِ سِنَّهُ مِنَ النَّدَمِ، وَضَرْبِ الْكَفِّ بِالْكَفِّ مِنَ التَّحَسُّرِ، وَمِنْ ذَلِكَ التَّأَوُّهُ وَالصِّيَاحُ وَنَحْوُهَا، وَهِيَ ضُرُوبٌ مِنْ عَلَامَاتِ الْجَزَعِ، وَبَعْضُهَا جِبِلِّيٌّ كَالصِّيَاحِ، وَبَعْضُهَا عَادِيٌّ يُتَعَارَفُهُ النَّاسُ وَيَكْثُرُ بَيْنَهُمْ، فَيَصِيرُونَ يَفْعَلُونَهُ بِدُونِ تَأَمُّلٍ، وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ ظَالِمٍ الْمُرِّيُّ:

فَأَقْبَلَ أَقْوَامٌ لِنَامٌ أَذِلَّةٌ ... يَعَضُّونَ من غيظ رُؤُوس الْأَبَاهِمِ (١)

وقد تضمنت الآية الثالثة أيضاً بيان صفة نفسية للكافرين المنهي عن اتخاذهم بطانة وهو استياؤهم وتألمهم لما يرونه من حسن حال المسلمين كائتلافهم واجتماع كلمتهم ونصرهم وعزتهم وقوتهم وسعة رزقهم، كما هو أيضاً فرحهم وسرورهم بما قد يشاهدونه من خلاف بين المسلمين أو وقوع هزيمة لجيش من جيوشهم، أو تغير حال عليهم بما يضر ولا يسر وهذه نهاية العداوة وشدة البغضاء، فهل مثل هؤلاء يتخذون أولياء؟ فقال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾. (٢)

- قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ فالآية الكريم تصور الحالة النفسية التي كان عليها رجل في أوج زهوه وبطره، وتعاليه وازدهائه. فماذا ترى يكون أثر هذا كله في نفس صاحبه الفقير، الذي لا جنة له ولا مال، ولا عصبة له ولا نفر؟ فإذا زال

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٦٦، ٦٧.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢/ ٢٤٢.

عنه مصدر زهوه وتعاليه وافتخاره بجنتيه اللتين بادتا وصارتا خاويتين على عروشهما يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها من مال وجهد كناية عن التحسر والندم وشدة الألم على فقدهما؛ لأن النادم يقلب كفيه ظهرًا لبطن ويضرب بيمينه على شماله. "تلهفاً وتحسراً عَلى مَا أَنْفَقَ فِيها في عمارتها ... لأن تقليب الكفين كناية عن الندم فكأنه قيل: فأصبح يندم، أو حال أي متحسراً على ما أنفق فيها". (١) وذَكَرَ اليَدَ لأنَّ النَّدَمَ يَحْدُثُ فِي القَلْبِ وأَثَرُه يَظْهَرُ فِي اليَدِ. فـ "التعبير القرآني يشخص صورة نفسية لصاحب الجنتين حين نزل العذاب بجنتيه فأصبح من النادمين عندما قال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ لقد كان صاحب الجنتين من قبل مغروراً بثمره، مزهوّاً بنفسه، فأنكر عليه صاحبه المؤمن سلوكه هذا، وأنذره عاقبة البطر والكبر، لكنه أبى إلا أن ينغمس في غيه، وينجرف في غروره، فأحاط العذاب من كل حدب وصوب بثمره الذي يعتز به، فإذا الثمار كلها مدمرة، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة، و "في هذا الموقف يرسم القرآن صورة حسية لمسية لمشهد الندم والحسرات الذي تلا نزول العذاب، ويطيل الوقوف عند هذه الصورة كما أطال الوقوف من قبل عند صورة وصف الجنتين قبل حلول ذلك العذاب لكي يدفع الذهن بين تينك الصورتين ليستخلص من عملية الربط هذه المواعظ والعبر التي تمثل الهدف النهائي من سرد هذه القصة، ومن مفردات هذه الصورة الحسية المجسدة للندم (تقليب الكف) و (خواء الجنة على عروشها) ، وإطلاق هذه العبارة المشحونة بالحسرات المشيعة بمشاعر الندم القاتل، يقول: {يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٣/ ٢٨٢.

أَحَدَاً}". [١] وقوله تعالى: «وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها» حال كاشفة عن حاله، وهو يندبها، ويقطّع نفسه حسرة عليها، وهي بين يديه جثة هامدة، لا يجدي معها هذا العويل الصارخ، وهذا النحيب المتصل.. وقوله تعالى: «وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً» هو حكاية لقوله الذي سيقوله يوم القيامة، يوم يساق إلى موقف أشدّ هؤلاء، وأقسى قسوة من هذا الموقف الذي هو فيه إزاء جنته تلك الخاوية على عروشها.. ففي هذا اليوم تشتد حسرته، ويتضاعف ندمه، ويقول فيما يقول: «يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا" [٢] قال الزبيدي نقلا عن الصاغاني: "هذا نظم لم يسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب.... وذكرت اليد؛ لأن الندم يحدث في القلب، وأثره يظهر في اليد كقوله تعالى: (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها)، ولأنَّ اليَدَ هيَ الجارِحَةُ العُظْمَى فرُبَّما يُسْنَدُ إِلَيْهَا مَا لم تُباشِرْه، كَقَوْلِه تَعَالَى: ذلِكَ بما قَدَّمَتْ يَداكَ". [٣] فأثر الندم أثره يظهر في اليد بالعضّ أو بالضرب بها على اليد الأخرى. [٤]

وقد ورد التعبير عن هذه الحالة النفسية التي تعتري الإنسان حين يكون في موقف يتحسر فيه ويندم على ما فاته، أو لم يستطع إنفاذ مطلوبه، أو امتلئ قلبه حنقا وغيظا على غيره في أجمل وأبدع تصوير محسوس إبرازا للغائب في صورة الشاهد في القرآن الكريم أكثر من مرة منها: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ

(١) القصص القرآني . رؤية فنية: ١١٢.
(٢) التفسير القرآني للقرآن ٨/ ٦٢٣.
(٣) تاج العروس (باب الطاء فصل السين س ق ط).
(٤) التفسير المنير للزحيلي ٩/ ٩٤.

مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (١) قالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مَعْنَاهَا أَنَّ أُولَئِكَ الْكُفَّارَ جَعَلُوا أَيْدِيَ أَنْفُسِهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ؛ لِيَعَضُّوا عَلَيْهَا غَيْظًا وَحَنَقًا لِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ؛ إِذْ كَانَ فِيهِ تَسْفِيهُ أَحْلَامِهِمْ، وَشَتْمُ أَصْنَامِهِمْ، وَمِمَّنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَاسْتَدَلَّ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، وَهَذَا الْمَعْنَى مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

تَرُدُّونَ فِي فِيهِ غِشَّ الْحَسُودِ ... حَتَّى يَعَضَّ عَلَى الْأَكُفِّ (٢)

يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَغِيظُونَ الْحَسُودَ حَتَّى يَعَضَّ عَلَى أَصَابِعِهِ وَكَفَّيْهِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَمِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ أَيْضًا:

قَدْ أَفْنَى أَنَامِلَهُ أَزْمُهُ ... فَأَضْحَى يَعَضُّ عَلَيَّ الْوَظِيفَا (٣)

أَيْ أَفْنَى أَنَامِلَهُ عَضًّا. (٤) وفي الحديث: "عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، فِي قَوْلِهِ: {فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} قَالَ: «عَضُّوا أَصَابِعَهُمْ غَيْظًا". (٥)

-وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً﴾ (٦) ففي الآية الكريمة وصف للحالة النفسية وهي شدة الإنكار والاستكبار والكراهية التي كان عليها قوم نوح – عليه السلام – حين دعاهم للاستجابة لدعوته فكانوا شديدي الكراهية لما

(١) سورة إبراهيم الآية (٩).
(٢) ورد البيت في كثير من المصادر غير منسوب، ولم أعثر على نسبته.
(٣) البيت في ديوان الهذليين ٢/ ٧٣.
(٤) إيضاح القرآن بالقرآن ٢/ ٢٤٢.
(٥) المعجم الكبير للطبراني – حديث رقم (٩١١٩)، ٩/ ٢٢٩.
(٦) سورة نوح الآية (٧).

يسمعون وأكثر استكبارا ونفورا وإعراضا عن دعوته حتى إنهم لشدة كراهيتهم له وضعوا أصابعهم في آذنهم كي لا يسمعوه وغطوا رؤوسهم حتى لا يرونه.

وقد وردت بعض هذه العبارات أو الأساليب المصورة أو المجسدة للحالة النفسية أو الانفعال النفسي في كتب الأحاديث ومنها: "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ، وَيَقُولُ: «قَاتَلَ اللَّهُ سَمُرَةَ عُوَيْمِلًا لَنَا بِالْعِرَاقِ خَلَطَ فِي فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ ثَمَنًا لَنَا بِالْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ، فَهُمَا حَرَامٌ، وَثَمَنُهُمَا حَرَامٌ». (١) والحديث: "عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ عُثْمَانَ، قَالَ: "وَافَيْتُ الْمَوْسِمَ، فَلَقِيتُ جَمَاعَةً فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ، ذَكَرَهُمْ، قَالَ: وَرَأَيْتُ طَاوُسًا الْيَمَانِيَّ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِرَجُلٍ: إِنَّ الْقَدَرَ سِرُّ اللَّهِ، فَلَا تَدَخَّلَنَّ فِيهِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يُحَدِّثُ عَنْ نَبِيِّكُمْ – ﷺ – أَنَّ مُوسَى – عليه السلام – لَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِ فِرْعَوْنَ مُتَغَيِّرَ الْوَجْهِ، اسْتَقْبَلَهُ مَلَكٌ مِنْ خُزَّانِ النَّارِ وَهُوَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ مُتَعَجِّبًا لِمَا قَالَ لَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ: إِنَّ رَبَّكَ أَرْسَلَكَ إِلَى فِرْعَوْنَ مَعَ أَنَّهُ قَدْ طَبَعَ عَلَى قَلْبِهِ فَلَنْ يُؤْمِنَ، قَالَ: يَا جِبْرِيلُ فَدُعَائِي مَا هُوَ؟ قَالَ: امْضِ لِمَا أُمِرْتَ، قَالَ: صَدَقْتَ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُوسَى نَحْنُ اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا مِنْ خُزَّانِ النَّارِ، قَدْ جَهَدْنَا عَلَى أَنْ نَسْأَلَ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَأُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْقَدَرَ سِرُّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَلَا تَدَخَّلُوا فِيهِ". (٢)

٢. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾ (٣)

ففي الآية الكريم تصوير مجسد للحالة التي يكون عليها الكافرون يوم القيامة

(١) مصنف عبد الرزاق الصنعاني – باب بيع الخمر – حديث رقم (١٠٠٤٧)، ٦/ ٧٥.

(٢) الإبانة الكبرى لابن بطة – أبو عبد الله العُكْبَري – باب (ما أمر الناس به من ترك البحث والتنقير) – حديث رقم (١٩٩٣)، ٤/ ٣١٣.

(٣) سورة إبراهيم الآيتان (٤٢، ٤٣).

وهي شدة الهول والفزع مما يرون. وَمَعْنَى شُخُوصِ الْأَبْصَارِ أَنَّهَا تَبْقَى مُنْفَتِحَةً لَا تُغْمَضُ مِنَ الْهَوْلِ وَشِدَّةِ الْخَوْف. (١) أي تتجمد الأبصار، فلا تطرف لهول ما ترى، حيث يمسك بها هذا الهول، ويشدّها إليه هذا البلاء، فتسكن وتجمد! قوله تعالى: «مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ». تبيّن هذه الآية حالا من أحوال هؤلاء الظالمين، وهم في موقف الحساب والمساءلة وبين يدي هذا الهول العظيم، الذي تنقلب فيه طبيعتهم، ويغيب عنهم صوابهم، وتفلت منهم جوارحهم. (٢) فصورة الفزع والاستسلام الواردة الآية الكريمة من أكثر الصور القرآنية استقصاءً لمظاهر الخوف وعلامات الوجل للظالم حين يواجه مصيره المشؤوم، فيبدو بصره شاخصاً، ورأسه مقنعاً، ومِشيتُه مسرعة، وقلبه فارغاً، فشخوص الأبصار تصوير لحالة الرعب المميت التي يكون عليها الكفار يوم القيامة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٣) فإن لفظة (شاخصة) تصوّر أبصار الذين كفروا وهي مفتوحةٌ لا تطرِف من فرط الهول الذي يداهمهم على حين غرّة. ومن هنا يتبين لنا أن شخوص الأبصار وما يتبعه من أوصاف خارجية تصوير حسي لمظاهر الرعب الذي يعانيه الظالمون، فأبصارهم لا تعرف قراراً، وهي "تظل مفتوحة مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك، ثم يرسم مشهداً للقوم في زحمة الهول، مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيءٍ، ولا يلتفتون إلى شيءٍ رافعين رؤوسَهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢/ ٢٤٩.
(٢) التفسير القرآني للقرآن ٧/ ٢٠٠.
(٣) سورة الأنبياء الآية (٩٧)

حراكاً، يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه، فهي هواء خواء". (١) ومنه الحديث: "حَدَّثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو يَحْيَى الْحِمَّانِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ نُبَيْطٍ قَالَ: كَانَ أَبِي وَجَدِّي وَعَمِّي مَعَ النَّبِيِّ – ﷺ –، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي قَالَ: " رَأَيْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – يَخْطُبُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ" قَالَ: قَالَ سَلَمَةُ: أَوْصَانِي أَبِي، بِصَلَاةِ السَّحَرِ، قُلْتُ: يَا أَبَةْ، إِنِّي لَا أُطِيقُهَا، قَالَ: "فَانْظُرِ الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ فَلَا تَدَعَنَّهُمَا، وَلَا تَشْخَصْ فِي الْفِتْنَةِ". (٢)

٣. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (٣) أكثر المفسرين أن هذه الآية نزلت في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد. (٤) ومعنى: (زاغَتِ الْأَبْصارُ): مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا. وقيل: عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوّها لشدة الروع. الحنجرة: رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم. والحلقوم: مدخل الطعام والشراب، قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع

(١) تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم صـ ٢٥.

(٢) مسند أحمد – باب حديث نبيط بن شريط – حديث رقم (١٨٧٢٣)، ٣١/ ٢١ – ط الرسالة.

(٣) سورة الأحزاب الآيات من (٩ – ١١).

(٤) التفسير الوسيط ١/ ٤٦٢.

أو الغضب أو الغمّ الشديد: ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، ومن ثمة قيل للجبان: انتفخ سحره. ويجوز أن يكون ذلك مثلا في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة، (وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) خطاب للذين آمنوا. ومنهم الثبت القلوب والأقدام. (١) وقيل المعنى: "أنهم جَبُنوا وَجِزع أكثرهم وسبيل الجبان إذا اشتدَّ خوفُه أن تنتفخ رئته فيرتفع حينئذ القلب إلى الحَنْجَرة، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس والفراء. وذهب ابن قتيبة إلى أن المعنى: كادت القلوبُ تبلُغ الحُلوقَ من الخوف". (٢) وقيل المعنى: "ارتفعت القلوب عن مكانها ووصلت من الفزع والخوف إلى الحناجر". (٣) إنها – (الآية) – ترسم صورة للحالة النفسية التي كان عليها المسلمون في غزوة الخندق أو الأحزاب وهي "صورة الهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها. وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب، من أعلاها ومن أسفلها، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم، والأسباب والنتائج. ومن ثم كان الابتلاء كاملا والامتحان دقيقا". (٤) فقوله تعالى: (وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ) تصوير للحال التي استولت على المسلمين من هذا الخطر الزاحف عليهم. وزيغان الأبصار، كناية عن الكرب الذي دخل على المسلمين، حتى اضطرب لذلك تفكيرهم، وغابت وجوه الرأي عنهم، فلم يتبينوا ماذا يأخذون أو يدعون من أمرهم. وبلوغ القلوب الحناجر، كناية أخرى عن هذا الكرب، وأنه أزال القلوب عن

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٣/ ٥٢٦.
(٢) زاد المسير في علم التفسير – ابن الجوزي ٣/ ٤٥١.
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن ١١/ ٥٥.
(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب إبراهيم ٥/ ٢٨٣٧.

مواضعها، بما أحدث فيها هذا الكرب من اضطراب وخفقان... وقوله تعالى: (وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيداً) بيان لما في هذا الابتلاء من شدة. [١] فالآية الكريمة ترسم مشهدًا كاملا تبرز فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة، وتلتقي فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية، وكأنما الحادث معروض من جديد، دون أن يغفل منه قليل أو كثير. فقوله: {وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ} هو تعبير مصوّر لحالة الخوف والكربة والضيق، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب، وقوله {وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ... وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدَاً} بيان للانفعالات الشديدة التي عصفت بالمؤمنين حتّى ظنّ بعضهم أن الله تخلّى عنهم وتركهم فريسة سهلة للأعداء، وقوله: (زلزلوا) وصف لحالة الاضطرابات النفسية المتتابعة التي كانوا عليها وكأن زلزالا شديدا أصاب الأرض من تحت أقدامهم وهو حدث كوني عظيم يحدث فيه الارتجاج والانشقاق، وذلك من خلال قوة الاستعارة التي شبهت الاضطراب النفسي الذي أصابهم بالزلزال،. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [٢] أي: أزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيهًا بالزلزلة. وقد نزلت هذه الآية أيضًا في غزوة الخندق (الأحزاب) حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة، والحر والبرد، وسوء العيش، وأنواع الأذى. [٣] والزلزال هنا معناه: الاضطراب والقلق من الأهوال حتى يقول الرسول والمؤمنون معه استبطاءً للنصر الذي وُعدوا به: متى

(١) التفسير القرآني للقرآن ١١/ ٦٦٢، ٦٢٣.

(٢) سورة البقرة الآية (٢١٤).

(٣) التفسير المنير للزحيلي ٢/ ٢٤٥.

نصر الله؟ فيجيبهم ربهم تعالى بقوله: {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}. [١] وقد جاء في السنة النبوية الشريفة تصوير دقيق أيضًا لهذه الحالة النفسية التي كان عليها المسلمون يوم الخندق ومنه الحديث: "حَدَّثَنِي رُبَيْحُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ؟ فَقَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، قَالَ: نَعَمْ، اللهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا"، قَالَ: "فَضَرَبَ اللهُ – ﷻ – وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمُ اللهُ – ﷻ – بِالرِّيحِ". [٢]

د – ألفاظ وردت في الحديث النبوي الشريف يكنى بها مراعاة للحالة النفسية ولم ترد في القرآن الكريم:

١. التعبير عن الصحراء التي هي موضع الهلاك؛ نظرًا لما يكثر فيها من الحيوانات المفترسة التي يتعرض من يمشي فيها للهلاك فلا يؤمل نجاته بالمفازة، فتسمى الصحراء أو الأرض القفر البعيدة عن العمارة وعن الماء التي يخاف الهلاك فيها عند السير فيها بالمفازة على سبيل التفاؤل بالنجاة كما في الحديث: "أَخْبَرَنَا أَبُو حَازِمٍ، أنبأ أَبُو الْفَضْلِ، أنبأ أَحْمَدُ، ثنا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، ثنا خَالِدٌ، ثنا مُطَرِّفٌ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، فِي رَجُلٍ سَيَّبَ دَابَّتَهُ فَأَخَذَهَا رَجُلٌ فَأَصْلَحَهَا، قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: " هَذَا قَدْ قُضِيَ فِيهِ إِنْ كَانَ سَيَّبَهَا فِي كَلَأٍ وَمَاءٍ وَأَمْنٍ فَصَاحِبُهَا أَحَقُّ بِهَا، وَإِنْ كَانَ سَيَّبَهَا فِي مَفَازَةٍ وَمَخَافَةٍ فَالَّذِي أَخَذَهَا أَحَقُّ بِهَا".[٣] ومثله الحديث: "أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ: بَلَغَنَا عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير – أبو بكر الجزائري ١/ ١٩٤.

(٢) السنن الكبرى – البيهقي – باب (ما جاء فيمن أحيا أسيرا) – حديث رقم (١٢١١٦)، ٦/ ٣٢٧.

(٣) مسند الإمام أحمد – باب (مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه) – حديث رقم (١٠٩٩٦)، ١٧/ ٢٧.

كَمَثَلِ قَوْمٍ سَلَكُوا مَفَازَةً غَبْرَاءَ، لَا يَدْرُونَ مَا قَطَعُوا مِنْهَا أَكْثَرَ أَمْ مَا بَقِيَ مِنْهَا، فَحَسَرَ ظَهْرُهُمْ، وَنَفِدَ زَادُهُمْ، وَسَقَطُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيِ الْمَفَازَةِ، فَأَيْقَنُوا بِالْهَلَكَةِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا لَحَدِيثُ الْعَهْدِ بِالرِّيفِ، فَانْتَهَى إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ يَا هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: مَا تَرَى، حَسَرَ ظَهْرُنَا وَنَفِدَ زَادُنَا، وَسَقَطْنَا بَيْنَ ظَهْرَانَيِ الْمَفَازَةِ، وَلَا نَدْرِي مَا قَطَعْنَا مِنْهَا أَكْثَرَ أَمْ مَا بَقِيَ عَلَيْنَا؟ قَالَ: مَا تَجْعَلُونَ لِي إِنْ أَوْرَدْتُكُمْ مَاءً رُوَاءً، وَرِيَاضًا خُضْرًا؟ قَالُوا: نَجْعَلُ لَكَ حُكْمَكَ، قَالَ: تَجْعَلُونَ لِي عُهُودَكُمْ، وَمَوَاثِيقَكُمْ أَنْ لَا تَعْصُونِي، قَالَ: فَجَعَلُوا لَهُ عُهُودَهُمْ، وَمَوَاثِيقَهُمْ أَنْ لَا يَعْصُوهُ، فَمَالَ بِهِمْ، وَأَوْرَدَهُمْ رِيَاضًا خُضْرًا، وَمَاءً رُوَاءً، فَمَكَثَ يَسِيرًا، ثُمَّ قَالَ: هَلُمُّوا إِلَى رِيَاضٍ أَعْشَبَ مِنْ رِيَاضِكُمْ هَذِهِ، وَمَاءٍ أَرْوَى مِنْ مَائِكُمْ هَذَا، فَقَالَ جُلُّ الْقَوْمِ: مَا قَدَرْنَا عَلَى هَذَا حَتَّى كِدْنَا أَنْ لَا نَقْدِرَ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: أَلَسْتُمْ قَدْ جَعَلْتُمْ لِهَذَا الرَّجُلِ عُهُودَكُمْ، وَمَوَاثِيقَكُمْ أَنْ لَا تَعْصُوهُ، وَقَدْ صَدَقَكُمْ فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ، فَآخِرُ حَدِيثِهِ مِثْلُ أَوَّلِهِ، فَرَاحَ وَرَاحُوا مَعَهُ، فَأَوْرَدَهُمْ رِيَاضًا خُضْرًا، وَمَاءً رُوَاءً، وَأَتَى الْآخَرِينَ الْعَدُوُّ مِنْ تَحْتِ لَيْلَتِهِمْ، فَأَصْبَحُوا مِنْ بَيْنِ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ". (١)

٢. ومن ذلك تسمية الأعمى بالبصير عزاء لحالته النفسية التي تؤلمه إذا نودي بهذا اللفظ (الأعمى) أو وصف به، فيستخدم اللفظ في ضد معناه الأصلي الذي وضع له في أصل اللغة وهو نعمة البصر، مراعاة للحالة النفسية التي يكون عليها الأعمى الذي سلب هذه النعمة التي هي من أجل النعم، وبيان بأن الله وإن سلبه نور البصر فقد عوضه بنور البصيرة كما في الحديث:

(١) الزهد والرقائق – أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي – باب (التقلل من الدنيا) – حديث رقم (٥٠٧) ١/ ١٧٦.

"حدثنا سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ – ﷺ – يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: "اذْهَبُوا بِنَا إِلَى بَنِي وَاقِفٍ نَزُورُ الْبَصِيرَ". قَالَ سُفْيَانُ: وَهُمْ حَيٌّ مِنَ الْأَنْصَار، وَكَانَ مَحْجُوبَ الْبَصَرِ". (١)

٣. ومن ذلك التعبير عن اللديغ الذي لدغته العقرب التي يتطير بها ويتشاءم منها بالسليم تفاؤلا بنجاته، فيستخدم اللفظ في ضد معناه الأصلي الذي وضع له في أصل اللغة وهو الصحيح المعافى للدلالة على اللديغ من باب التفاؤل بالشفاء والسلامة. ومن ذلك الحديث: "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ، فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الحَيِّ سَلِيمٌ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غَيْبٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلاَثِينَ شَاةً، وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً، أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟ – قَالَ: لاَ، مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الكِتَابِ، قُلْنَا: لاَ تُحْدِثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَ – أَوْ نَسْأَلَ – النَّبِيَّ – ﷺ – فَلَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ – ﷺ – فَقَالَ: «وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ» وَقَالَ أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، حَدَّثَنِي مَعْبَدُ بْنُ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ بِهَذَا". (٢)

ثانيا: الدلالة النفسية لألفاظ الألوان في القرآن والسنة:

للألوان في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة أثرها النفسي حيث تستعمل استعمالا خاصًا في غير ما وضعت له؛ تنبيهًا وإشارة وتلميحًا، بل

(١) السنن الكبرى للبيهقي – باب (من سمى المرأة قارورة) – حديث رقم (٢٠٨٥٢) ١٠/ ٣٣٧، والجامع لابن وهب – أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي – باب (الإخاء) – حديث رقم (٢٤٩) صـ ٣٥٤.

(٢) صحيح البخاري – باب (فضل فاتحة الكتاب) – حديث رقم (٥٠٠٧) ٦/ ١٨٧.

وتصويرًا للحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان أو غيره، فتكون حينئذ أكثر إيجازًا وأبلغ تصويرًا للحالة من التصريح بها؛ لأنها تارة تكون للتعبير عن الفرح الذي يشعر به المؤمنون عند لقاء ربهم يوم القيامة، وتارة أخرى تكون للتعبير عن الحزن الذي يخيم ظلامه على الكافرين، وتارة ثالثة تكون للتعبير عن الخجل، أو المرض، أو الغضب. إذ إن كلمات الألوان لا تحيل إلى الألوان ذاتها أو تحيل إليها في اللحظة الأولى فحسب، أمّا في اللحظة الثانية فإن اللون نفسه يتحول إلى دالّ يؤدي دلالة ثانية ذات طبيعة وجدانية معبرة عن حالة نفسية إيجابية أو سلبية، ويظهر ذلك بوضوح في تغيير ملامح الوجه، سواء بالحسن أم بالقبح، حيث يكون من أبرز المظاهر الخارجية التي شخصها التصوير القرآني والسنة النبوية الشريفة للدلالة على الانفعالات النفسية. ومن ذلك ما يلي:

١. دلالة اللون الأبيض:

ورد اللون الأبيض في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الشريفة في أكثر من موضع منها ما كان مستعملا في أصل معناه وهو مطلق اللون كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١) وكما في وصف شراب أهل الجنة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ (٢) وقد استعمل هذا اللون في بعض الآيات للتعبير عن الحالة النفسية كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٣) فالآية تعرض صورتين متناقضتين في مشهد واحد بأسلوب مثير يجمع بين الحوار المتأزم والوصف الدقيق، صورة نفسية ليعقوب – عليه السلام – وقد أعرض عن أولاده

(١) سورة الأعراف الآية (١٠٨).

(٢) سورة الصافات الآيتان (٤٥، ٤٦).

(٣) سورة يوسف الآية (٨٤).

إعراض عتاب وقلبه مفجوعٌ مكلومٌ من الحزن على فقد فلذة كبده يوسف الحبيب معبّراً عن هذه الحالة النفسية القاتمة بهذا التعبير {يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} الدالِّ على الحزن واللهف البالغين بمدّه الطويل وبدلالته المنطوقة، ونَادَى الْأَسَفَ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ عَلَى مَعْنَى: هَذَا زَمَانُكَ فَاحْضُرْ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يُضَافُ إِلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ قُلِبَتْ أَلِفًا، كَمَا قَالُوا: فِي يَا غُلَامِي يَا غُلَامَا. وَقِيلَ: هُوَ عَلَى النُّدْبَةِ". (١) ويعمق النص صورة النفس الحزينة برسم الملامح الخارجية لسيّدنا يعقوب – عليه السلام– إذ تبيضّ عيناه من شدة الحزن وكثرة البكاء على يوسف – عليه السلام–، واللون الأبيض هنا يرتبط بدلالة وجدانية تشير إلى الحزن العالق في بالنفس. فـ "كُلٌّ مِنَ التَّوَلِّي وَالتَّحَسُّرِ وَابْيِضَاضِ الْعَيْنَيْنِ مِنْ أَحْوَالِهِ إِلَّا أَنَّهَا مُخْتَلِفَةُ الْأَزْمَانِ. وَابْيِضَاضُ الْعَيْنَيْنِ: ضَعْفُ الْبَصَرِ. وَظَاهِرَةٌ أَنَّهُ تَبَدَّلَ لَوْنُ سَوَادِهِمَا مِنَ الْهُزَالِ؛ وَلِذَلِكَ عَبَّرَ بِـ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ دُونَ عَمِيَتْ عَيْنَاهُ. وَالْحُزْنُ سَبَبُ الْبُكَاءِ الْكَثِيرِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ ابْيِضَاضِ الْعَيْنَيْنِ. وَعِنْدِي أَنَّ ابْيِضَاضَ الْعَيْنَيْنِ كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ الْإِبْصَارِ كَمَا قَالَ الْحَارِثُ بْنُ حِلِّزَةَ:

قَبْلَ مَا الْيَوْمِ بَيَّضَتْ بِعُيُونِ النَّ ... اسِ فِيهَا تَغَيُّضٌ وَإِبَاءُ (٢)

وَأَنَّ الْحُزْنَ هُوَ السَّبَبُ لِعَدَمِ الْإِبْصَارِ كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ. فَإِنَّ تَوَالِيَ إِحْسَاسِ الْحُزْنِ عَلَى الدِّمَاغِ قَدْ أَفْضَى إِلَى تَعْطِيلِ عَمَلِ عَصَبِ الْإِبْصَارِ عَلَى أَنَّ الْبُكَاءَ مِنَ الْحُزْنِ أَمْرٌ جِبِلِّيٌّ فَلَا يُسْتَغْرَبُ صدوره من نبيء، أَوْ أَنَّ التَّصَبُّرَ عِنْدَ الْمَصَائِبِ لَمْ يَكُنْ مِنْ سُنَّةِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ بَلْ كَانَ مِنْ سُنَنِهِمْ إِظْهَارُ الْحُزْنِ وَالْجَزَعِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ. وَقَدْ حَكَتِ التَّوْرَاةُ بُكَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مُوسَى– عليه السلام– أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَحَكَتْ تَمْزِيقَ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ ثِيَابَهُمْ مِنَ الْجَزَعِ. وَإِنَّمَا التَّصَبُّرُ فِي

(١) البحر المحيط ٦/ ٣١٤.

(٢) ديوان الحارث بن حلزة اليشكري – مروان بن العطية صـ ٨٢.

الْمُصِيبَةِ كَمَالٌ بَلَغَتْ إِلَيْهِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ". (١) ومن ذلك الحديث: "عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ –: "أَنَّ دَاوُدَ – عليه السلام – قَالَ: أَيْ رَبِّ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَسْأَلُونَكَ بِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فَاجْعَلْنِي يَا رَبِّ لَهُمْ رَابِعًا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَا دَاوُدُ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ فِي سَبْيٍ فَصَبَرَ، وَتِلْكَ بَلِيَّةٌ لَمْ تَنَلْكَ، وَإِنَّ إِسْحَاقَ بَذَلَ نَفْسَهُ لِيُذْبَحَ فَصَبَرَ مِنْ أَجْلِي فَتِلْكَ بَلِيَّةٌ لَمْ تَنَلْكَ، وَإِنَّ يَعْقُوبَ أَخَذْتَ حَبِيبَهُ حَتَّى ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ فَصَبَرَ وَتِلْكَ بَلِيَّةٌ لَمْ تَنَلْكَ". (٢) وكذا الحديث: "عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيُّ عَنْ جَعْفَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، عَنْ كَثْرَةِ بُكَائِهِ، فَقَالَ: «لَا تَلُومُونِي، فَإِنَّ يَعْقُوبَ فَقَدَ سِبْطًا مِنْ وَلَدِهِ فَبَكَى حَتَّى ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ مَاتَ، وَقَدْ نَظَرْتُ إِلَى أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي غَزَاةٍ وَاحِدَةٍ أَفَتَرَوْنَ حُزْنَهُمْ يَذْهَبُ مِنْ قَلْبِي؟". (٣)

وإذا كان اللون الأبيض فيه دلالة على الحالة النفسية الحزينة لسيّدنا يعقوب – عليه السلام –، فإنه في آيات أخرى كان تصويرًا لحالة نفسية تشعر بالسعادة والأمل والتفاؤل وهو الأصل فيه كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٥) ومن ذلك الحديث: "حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٤٣

(٢) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار – أبو بكر بن أبي شيبة – باب (ما ذكر من أمر داود عليه السلام وتواضعه) – حديث رقم (٣١٨٩٤)، ٦/ ٣٤٢.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – باب (زين العابدين علي بن الحسين) ٣/ ١٣٨.

(٤) سورة آل عمران الآية (١٠٦).

(٥) سورة آل عمران الآية (١٠٧).

أَبِي غَالِبٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، أَنَّهُ رَأَى رؤوسا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجِ مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: "كِلَابُ النَّارِ كِلَابُ النَّارِ، ثَلَاثًا، شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ. خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قُلْتُ لِأَبِي أُمَامَةَ: أَسَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ – ﷺ – قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا أَوْ سِتًّا أَوْ سَبْعًا مَا حَدَّثْتُكُمْ". (١)

٢. دلالة اللون الأسود:

ورد اللون الأسود في القرآن الكريم في أكثر من موضع منها ما كان مستعملا في دلالته الأصلية كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (٢) ومنها ما كان معبرا وكاشفا عن الحالة النفسية التي يكون عليها غير المسلم في الدنيا وفي الآخرة من الحزن وشدة العذاب خير تعبير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٣) فقوله (مسودًا) تعبير عن الحالة النفسية السيئة والصراع النفسي الذي كان الكافر يعيشه في الجاهلية أو قبل الإسلام حين تولد له أنثى، إذ "يروى أن بعض الجاهلية يتوارى في حال الطلق فإن أخبر بذكر ابنته أو بأنثى حزن وبقي متواريًا أيامًا يدبر فيها ما يصنع أَيُمْسِكُهُ أيتركه ويربيه على هُونٍ أي ذل، والجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل؛ ولذا قال ابن عباس – ﷺ –: معناه

(١) مسند أحمد – باب (حديث أبي أمامة الباهلي الصدى بن عجلان) – حديث رقم (٢٢٢٠٨)، ٣٦/ ٥٤٢.

(٢) سورة البقرة من الآية (١٨٧).

(٣) سورة النحل الآيات من (٥٧ – ٥٩).

أيمسكه مع رضاه بهوان نفسه وعلى رغم أنفه، وقيل: حال من المفعول به أي أيمسك المبشر به وهو الأنثى مهانا ذليلا، وجملة أَيُمْسِكُهُ معمولة لمحذوف معلق بالاستفهام عنها وقع حالا من فاعل يَتَوارى أي محدثا نفسه متفكرا في أن يتركه أَمْ يَدُسُّهُ يخفيه فِي التُّرابِ والمراد يئده ويدفنه حيا حتى يموت وإلى هذا ذهب السدي. وقتادة. وابن جريج وغيرهم، وقيل: المراد إهلاكه سواء كان بالدفن حيًّا أم بأمر آخر فقد كان بعضهم يلقي الأنثى من شاهق". (١) فـ "الْإِنَاثُ الَّتِي جَعَلُوهَا لِلَّهِ يَكْرَهُونَهَا لِأَنْفُسِهِمْ وَيَأْنَفُونَ مِنْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾، أَيْ: لِأَنَّ شِدَّةَ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ تُسَوِّدُ لَوْنَ الْوَجْهِ: وَهُوَ كَظِيمٌ، أَيْ: مُمْتَلِئٌ حُزْنًا وَهُوَ سَاكِتٌ. وَقِيلَ: مُمْتَلِئٌ غَيْظًا عَلَى امْرَأَتِهِ الَّتِي وَلَدَتْ لَهُ الْأُنْثَى: يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيْ: يَخْتَفِي مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ أَجْلِ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ لِئَلَّا يَرَوْا مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ، أَوْ لِئَلَّا يَشْمَتُوا بِهِ وَيُعَيِّرُوهُ. وَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ وَيَنْظُرُ: أَيُمْسِكُهُ، أَيْ: مَا بُشِّرَ بِهِ وَهُوَ الْأُنْثَى، عَلَى هُونٍ، أَيْ: هَوَانٍ وَذُلٍّ. أَمْ يَدُسُّهُ، فِي التُّرَابِ: أَيْ: يَدْفِنُ الْمَذْكُورَ الَّذِي هُوَ الْأُنْثَى حَيًّا فِي التُّرَابِ، يَعْنِي: مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ بِالْبَنَاتِ مِنَ الْوَأْدِ وَهُوَ دَفْنُ الْبِنْتِ حَيَّةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٢).... (٣) فـ "قَدْ فَشَا فِيهِمْ كَرَاهِيَةُ وِلَادَةِ الْأُنْثَى وقَدْ نَمَا فِي نُفُوسِهِمْ بُغْضُهَا فَتَحَرَّكَتْ فِيهَا الْخَوَاطِرُ الْإِجْرَامِيَّةُ فَالرَّجُلُ يَكْرَهُ أَنْ تُولَدَ لَهُ أُنْثَى لِذَلِكَ، وَامْرَأَتُهُ تَكْرَهُ أَنْ تُولَدَ لَهَا أُنْثَى خَشْيَةً مِنْ فِرَاقِ زَوْجِهَا إِيَّاهَا وَقَدْ يَهْجُرُ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِذَا وَلَدَتْ أُنْثَى. وَقَدْ تَوَارَثَتْ هَذَا الْجَهْلَ أَكْثَرُ الْأُمَمِ عَلَى تَفَاوُتٍ بَيْنَهُمْ فِيهِ، وَمِنْ كَلَامِ بَعْضِهِمْ وَقَدْ مَاتَتِ ابْنَتُهُ: «نِعْمَ الصِّهْرُ

(١) روح المعاني ٧/ ٤٠٨.

(٢) سورة التكوير الآيتان (٨، ٩).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢/ ٣٨٧.

الْقَبْرُ». [١] ومثلها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [٢] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [٣] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٤] فاسوداد وجوه الكفار يوم القيامة إنما هو تعبير عن حالة الحزن وشدة العذاب التي سيكونون عليها في هذا اليوم. ومن ذلك الحديث النبوي الشريف: "عَنْ شَيْخٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ أَبَا الدَّرْدَاءِ، وَأَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولَانِ: نَشْهَدُ أَنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ - ﷻ -: ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ وَلَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى تَرْجِعَ الْمَرْأَةُ إِلَى حِجْلَتِهَا، فَتَجِدُ زَوْجَهَا قَدْ مُسِخَ قِرْدًا لِأَنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ". [٥] فتغيير ملامح أو لون الوجه في الآيات الكريمة كان من أبرز المظاهر الخارجية التي شخّصها التصوير القرآني للدلالة على الانفعالات النفسية.

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٤٥.
(٢) سورة الزخرف الآية (١٧).
(٣) سورة الزمر الآية (٦٠).
(٤) سورة آل عمران الآيتان (١٠٦، ١٠٧).
(٥) الإبانة الكبرى – ابن بَطَّة العكبري – باب (ما روي في المكذبين بالقدر) حديث رقم (١٥٣٨)، ٤/ ١١٦.

٣. دلالة اللون الأزرق:

ولم يرد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة فقط وكان وصفا لحال الشؤم والعذاب من شدة ما يصيب الكافرين يوم القيامة من الفزع والهول قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ (١) أي: "يحشرهم أول قيامهم سود الألوان زرق العيون تشويه ما ثم يعمون بعد ذلك وهي مواطن، وقالت فرقة إنهم يحشرون عطاشا والعطش الشديد يرد سواد العين إلى البياض فكأنهم بيض سواد عيونهم من شدة العطش، وقالت فرقة أراد زرق الألوان وهي غاية في التشويه لأنهم يجيئون كلون الرماد". (٢) وقيل: "أن أعينهم عميت لأن العين إذا عميت كان سواد حبتها أزرق، وذلك تشويه لها وتشويه للوجه وطمس للعين، ويقول البيضاوي تابعا للزمخشري: زرق العيون، وصفوا بذلك؛ لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب؛ لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد، أزرق العين. ولعل وصف الزرق بالعمى أقرب من ذلك القول، ولا نحسب أن وصفهم بزرق العيون ذمًّا جيدا في ذاته. ونحن نقول إن القرآن الكريم لم يجعل (زرْقًا) وصفا للعيون، ولكنه وصف لأجسامهم، ولا شك أن وصفهم بأنهم زرق في أجسامهم ووجوههم وصف لهم بالهلع والفزع، وهو المقصود، فهم هلعون فزعون من هول ذلك اليوم الشديد، والزرقة أقرب إلى السواد، فهي أدلّ على الفزع، ومعناه أنهم يجيئون سودا". (٣)

وقال الرازي: "اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالزُّرْقَةِ عَلَى وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: قَالَ الضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلٌ: يَعْنِي زُرْقَ الْعُيُونِ سُودَ الْوُجُوهِ وَهِيَ زُرْقَةٌ تَتَشَوَّهُ بِهَا خِلْقَتُهُمْ وَالْعَرَبُ تَتَشَاءَمُ بِذَلِكَ،

(١) سورة طه الآية (١٠٢).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية ٤/ ٦٣.

(٣) زهرة التفاسير ٩/ ٤٧٨٤، ٤٧٨٥.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ أَنَّ اللَّه تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُمْ: يُحْشَرُونَ عُمْيًا فَكَيْفَ يَكُونُ أَعْمَى وَأَزْرَقَ؟ قُلْنَا: لَعَلَّهُ يَكُونُ أَعْمَى فِي حَالٍ وَأَزْرَقَ فِي حَالٍ. وَثَانِيهَا: الْمُرَادُ مِنَ الزُّرْقَةِ الْعَمَى. قَالَ الْكَلْبِيُّ: زُرْقًا أَيْ عُمْيًا، قَالَ الزَّجَّاجُ: يَخْرُجُونَ بُصَرَاءَ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ وَيَعْمُونَ فِي الْمَحْشَرِ. وَسَوَادُ الْعَيْنِ إِذَا ذَهَبَ تَزْرَقُّ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ أَعْمَى، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ﴾، وَشُخُوصُ الْبَصَرِ مِنَ الْأَعْمَى مُحَالٌ، وَقَدْ قَالَ فِي حَقِّهِمْ: ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ﴾ (١)، وَالْأَعْمَى كَيْفَ يَقْرَأُ. فَالْجَوَابُ: أَنَّ أَحْوَالَهُمْ قَدْ تَخْتَلِفُ. وَثَالِثُهَا: قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: الْمُرَادُ بِهَذِهِ الزُّرْقَةِ شُخُوصُ أَبْصَارِهِمْ وَالْأَزْرَقُ شَاخِصٌ؛ لِأَنَّهُ لِضَعْفِ بَصَرِهِ يَكُونُ مُحَدِّقًا نَحْوَ الشَّيْءِ يُرِيدُ أَنْ يَتَبَيَّنَهُ، وَهَذِهِ حَالُ الْخَائِفِ الْمُتَوَقِّعِ لِمَا يَكْرَهُ وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ﴾. وَرَابِعُهَا: زُرْقًا عِطَاشًا هَكَذَا رَوَاهُ ثَعْلَبٌ عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ: لِأَنَّهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ يَتَغَيَّرُ سَوَادُ عُيُونِهِمْ حَتَّى تَزْرَقَّ وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ (٢) .... (٣) ومن ذلك الحديث: "حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ، عَنِ الْكَلْبِيِّ فَذَكَرَهُ وَقَالَ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٤)، وَقَوْلِهِ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٥) سُؤَالُ التَّعَرُّفِ لتَمْيِيزِ الْمُؤْمِنِ عَنِ الْكَافِرِ، أَي إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَحْتَاجُ أَنْ تَسْأَلَ أَحَدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَقُولُ: مَا كَانَ ذَنْبُكَ، وَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ بِأَخْبَارِهِ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا لَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ

(١) سورة الإسراء من الآية (١٤).
(٢) سورة مريم الآية (٨٦).
(٣) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ٢٢/ ٩٨.
(٤) سورة القصص من الآية (٧٩).
(٥) سورة الرحمن الآية (٣٩).

يَكُونُونَ نَاضِرِي الْوُجُوهِ مَشْرُوحِي الصُّدُورِ، وَالْمُشْرِكِينَ يَكُونُونَ سُودَ الْوُجُوهِ زُرْقًا مَكْرُوبِينَ، فَهُمْ إِذَا كُلِّفُوا سَوْقَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى النَّارِ، وَتَمْيِيزَهُمْ فِي الْمَوْقِفِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ كَفَتْهُمْ مَنَاظِرُهُمْ عَنْ تَعَرُّفِ ذُنُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ". (١)

فاللون الأزرق في الآية وفي الحديث الشريف كان تصويرًا بليغًا وتشخيصًا بديعًا للحالة النفسية التي سيكون عليها المجرمون حين يساقون إلى البعث فتشوه خلقتُهم بسواد وجوههم، وتتغير لون عيونهم فتتحول إلى اللون الأزرق وهو لون بين البياض والسواد تعدّه العرب أبغض شيء من الألوان، وكانت العرب تتشاءم منه؛ لأن في زرقة العيون دلالة على الغم والكدر.

٤.دلالة اللون الأحمر:

ورد اللون الأحمر في القرآن الكريم مرة واحدة وكان دالا على أصل معناه في اللغة وهو مطلق اللون، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (٢) أما في الحديث النبوي فقد ورد كثيرا للدلالة على مطلق اللون تارة، وللدلالة على الحالة النفسية وهي الغضب تارة ثانية ومن دلالته على الغضب الحديث: "عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – عَنِ اللُّقَطَةِ، فَقَالَ: أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – عَنِ اللُّقَطَةِ، فَقَالَ: عَرِّفْهَا سَنَةً، ثُمَّ اعْرِفْ وِكَاءَهَا وَوِعَاءَهَا وَعِفَاصَهَا، ثُمَّ اسْتَنْفِقْ بِهَا، فَإِنْ جَاءَ رَبُّهَا فَأَدِّهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَضَالَّةُ الغَنَمِ، فَقَالَ: خُذْهَا، فَإِنَّمَا هِيَ لَكَ أَوْ لأَخِيكَ أَوْ لِلذِّئْبِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَضَالَّةُ الإِبِلِ، قَالَ: فَغَضِبَ النَّبِيُّ – ﷺ – حَتَّى

(١) شعب الإيمان للبيهقي– باب (حشر الناس بعد ما يبعثون من قبورهم) – الحديث رقم (٢٧١)، ١/ ٤٣٥.

(٢) سورة فاطر من الآية (٢٧).

احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ، أَوْ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: مَا لَكَ وَلَهَا؟ مَعَهَا حِذَاؤُهَا وَسِقَاؤُهَا حَتَّى تَلْقَى رَبَّهَا". (١)

٥. دلالة اللون الأصفر:

ورد اللون الأصفر في القرآن الكريم أكثر من مرة وكان دالا على أصل معناه في اللغة وهو مطلق اللون تارة كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (٢) وعلى استواء النبات وقد حان حصاده، أو موته وهو من نفس المعنى؛ لأن لونه الأخضر يتحول إلى اللون الأصفر حينئذ، أما في الحديث النبوي فقد ورد كثيرًا للدلالة على مطلق اللون تارة، وللدلالة على الحالة النفسية وهي الخوف تارة ثانية ومن دلالته على الخوف الحديث: "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّ الْأَشْعَرِيَّ، اسْتَأْذَنَ عَلَى عُمَرَ فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ، فَرَجَعَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ: مَا رَدَّكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ: «إِذَا اسْتَأْذَنَ الْمُسْتَأْذِنُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ» فَقَالَ: لَتَأْتِيَنِّي بِمَنْ يَعْلَمُ هَذَا أَوْ لَأَفْعَلَنَّ بِكَ وَلَأَفْعَلَنَّ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَجَاءَنِي الْأَشْعَرِيُّ يُرْعَدُ قَدِ اصْفَرَّ وَجْهُهُ، فَقَامَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – ﷺ –، فَقَالَ: أَنْشُدُ اللَّهَ رَجُلًا عَلِمَ مِنْ هَذَا عِلْمًا إِلَّا قَامَ بِهِ، فَإِنِّي قَدْ خِفْتُ هَذَا الرَّجُلَ عَلَى نَفْسِي، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَقُلْتُ: أَنَا مَعَكَ، فَقَالَ آخَرُ: وَأَنَا مَعَكَ، فَسُرِّيَ عَنْهُ". (٣)

(١) سنن الترمذي – باب (ما جاء في اللقطة وضالة الإبل) – الحديث رقم (١٣٧٢)، ٣/ ٤٨.

(٢) سورة البقرة الآية (٦٩).

(٣) مسند أبي داود – باب (ما روى عنه أبو نضرة) – الحديث رقم (٢٢٧٨)، ٣/ ٦٢٠.

المبحث الثالث

أثر السياق في تحديد الدلالات النفسية للألفاظ متقاربة الدلالة في القرآن والسنة

في هذا المبحث نتناول دراسة ألفاظ أخرى غير تلك التي سبق دراستها في المبحث الأول وهي أيضا ألفاظ تعبر عن حالة نفسية شعورية مباشرة، لكن عن طريق بيان الفروق الدلالية بينها وبين أقرب الألفاظ التي تؤدي إلى مثل هذه الحالة، أو درجة انفعالية معينة من درجاتها مما أوحى لبعض العلماء القول بترادفها في نفس المعنى.

فعند دراسة هذه الألفاظ الدالة على الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان أحيانًا وجدت أن هناك فروقًا دلالية بين بعضها، لا سيما بين تلك الألفاظ التي قال بعض العلماء بترادفها، وبعد التأمل والبحث فيما توحيه هذه الكلمات في سياقاتها التي استعملت فيها في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة تبين لي أنها ليست مترادفة، وإنما لكل لفظ منها درجة شعورية محددة أو حالة وجدانية معينة تختلف عن الأخرى مما يوحي بتقاربها دلاليًّا وليس بترادفها ترادفًا تامًا، حيث لا يمكن أن يحل محلها في ذات السياق أقرب الكلمات إليها. مما يدعونا إلى الإقرار بتفرد كل كلمة بخصوصية معنوية توجد فيها ولا توجد فيما قيل إنها مرادفة لها، إذ يناط بكل مفردة في سياقها أداء الأغراض والدلالات التي قصدت من وراء توظيفها في هذا السياق، والتي لا تقوم بها غيرها لو وضعت موضعها.

فالسياق هو من أهم القرائن المعينة على تلمس هذه الفروق وتلك الإيحاءات النفسية التي يدل عليها كل لفظ منها، ويعد السياق القرآني والسياق في الحديث النبوي الشريف خاصة هما الميدان الرئيس للكشف عن جمالية وخصوصية المفردة وتفردها بمعنى لا يؤديه غيرها وإن رادفتها في ظن بعض العلماء مما يؤكد ولا يدع مجالا للشك في أنها متقاربة وليست مترادفة. يقول

د/ فاضل السامرائي: "في القرآن آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة، كأن يكون الاختلاف في حرف أو كلمة، أو في نحو ذلك. وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمرًا مقصودًا في كل جزئيّة من جزئيّاته قائمًا على أعلى درجات الفنّ والبلاغة والإعجاز. وكلما تأمّلت في ذلك ازددت عجبًا وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير العظيم". (١)

فللظلال النفسية التي توحي بها بعض الألفاظ في استعمالاتها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إذن دور مهم وبارز في التفرقة بينها في الدلالة بحيث لا يمكن أن يحل لفظ منها محل ما قيل إنه مرادفة في نفس السياق الذي هو من أهم القرائن المعينة على تلمس هذه الفروق وتلك الإيحاءات النفسية التي يدل عليها كل لفظ منها، ذلك أنها في الأكثر تكون ذات فروق دلالية معينة أو دلالة نفسية ذات درجة انفعالية خاصة. وفيما يلي بيان وتوضيح للفروق الدلالية بين الألفاظ التي تحمل دلالات نفسية متقاربة وليست متماثلة مما يدل على درو الدلالة النفسية والظلال والإيحاءات النفسية في بيان الفرق بينها وإن قال بعض العلماء بترادفها.

١. ذكر بعض العلماء أن لفظ الخوف يأتي في اللغة العربية مرادفًا لعدة ألفاظ منها: "الوجل والروع والفزع والخشية والرهبة ...". (٢)

فهذه الألفاظ جميعها تدل على الحالة النفسية التي يمر بها الإنسان إذا كان في موقف قلق واضطراب، وبالبحث عن هذه الألفاظ واستعمالاتها في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تبين عدم اتحاد دلالاتها في بيان وإبراز الحالة

(١) التعبير القرآني – د/ فاضل صالح السامرائي صـ ١٧٣.

(٢) الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة صـ١٤٠، ونجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد – إبراهيم اليازجي ١/ ٢١٨.

النفسية التي يكون عليها الإنسان إذا ألم به مكروه ما، فإنه تتفاوت حالته ولا يكون على حالة نفسية واحدة من الخوف؛ لأن الخوف يكون على درجات متفاوتة وليس على درجة واحدة، ولكل درجة أو حالة نفسية منها لفظ يوافقها ويعبر عنها أدق تعبير وأصدقه خلافًا لغيره من بقية الألفاظ مما يبرزها بوضوح لا لبس فيه، وبيان ذلك على النحو التالي:

الفرق بين (الخوف والخشية): قد لا يفرق بينهما بعض اللغويين فيوردهما على أنهما لفظان مترادفان يمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر في جميع السياقات، لكن بتأمل السياقات التي ورد فيها اللفظان تبين عدم ترادفهما أو اتحادهما اتحادًا تامًّا في المعنى؛ لأن الخشية أعلى مرتبة من الخوف وهي أشد الخوف. (١) كما أن بينهما اختلاف من حيث اشتقاق كل منهما، فـ "الخشية مأخوذة من قولهم: شجرة خشية، إذا كانت يابسة وذلك فوات بالكلية، أما الخوف فمن قولهم: ناقة خوفاء، إذا كان بها داء وذلك نقص وليس بفوات، ومن ثمة خصت الخشية بالله في قوله – ﷻ –: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (٢) ... (٣) كذا يفرق بينهما أيضًا من حيث السياق الذي يجب أن يستعمل فيه أحد اللفظين دون الآخر ذلك "أن الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قويًا، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا، ويدل على ذلك أن الخاء والشين والياء في تقاليبها تدل على العظمة، قالوا شيخ للسيد الكبير، والخيش لما عظم من الكتان. والخاء والواو والفاء في تقاليبها تدل على الضعف، وانظر إلى الخوف لما فيه

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن – الزركشي ٤/ ٧٨.

(٢) سورة الرعد الآية (٢١).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٤/ ٧٨.

من ضعف القوة قال تعالى:(يخشون ربهم ويخافون سوء العذاب)، فإن الخوف من الله لعظمته يخشاه كل أحد كيف كانت حاله، وسوء الحساب ربما لا يخافه من كان عالمًا بالحساب وحاسب نفسه قبل أن يحاسب....". [١] فالخوف هو توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [٢] خلافًا للخشية التي لا تكون إلا من مخشي عظيم خاص وهو الله – ﷻ –.

وقد فرق بينهما العسكري بأن الخوف يتعلق بالمكروه وبترك المكروه تقول: خفت زيدًا كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [٣] وتقول: خفت المرض كما قال سبحانه: (ويخافون سوء الحساب)، والخشية تتعلق بمنزل المكروه، ولا يسمى الخوف من نفس المكروه خشية؛ ولهذا قال: (ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) فإن قيل: أليس قد قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [٤] قلنا: إنه خشي القول المؤدي إلى الفرقة، والمؤدي إلى الشيء بمنزلة من يفعله. وقال بعض العلماء يقال: خشيت زيدًا، ولا يقال: خشيت ذهاب زيد. فإن قيل ذلك فليس على الأصل، ولكن على وضع الخشية مكان الخوف، وقد يوضع الشيء مكان الشيء إذا قرب منه. وقد ذكر المحقق الطوسي في بعض مؤلفاته ما حاصله: أن الخوف والخشية وإن كانا في اللغة بمعنى واحد إلا أن بين خوف الله وخشيته وفي عرف أرباب القلوب فرقًا، وهو أن الخوف تألم النفس من العقاب المتوقع بسبب ارتكاب المنهيات،

(١) السابق نفسه.

(٢) سورة البقرة الآية (١٥٥).

(٣) سورة النحل الآية (٥٠).

(٤) سورة طه من الآية (٩٤).

والتقصير في الطاعات. وهو يحصل لأكثر الخلق وإن كانت مراتبه متفاوتة جدًا، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلا للقليل. أما الخشية: فهي حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته وخوف الحجب عنه، وهذه حالة لا تحصل إلا لمن اطلع على حال الكبرياء وذاق لذة القرب؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. (١) فالخشية: خوف خاص؛ لأنه خوف مع تعظيم قال الراغب: "الخَشْيَة: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها في قوله: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ". (٢) وعلى هذا جاء الحديث النبوي الشريف: "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ: "عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". (٣) ومثله الحديث: "عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ". (٤) وقد يطلقون عليها الخوف. قلت: ويؤيد هذا الفرق أيضا قوله تعالى يصف المؤمنين: "ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب" حيث ذكر الخشية في جانبه سبحانه، والخوف في جانب الحساب. (٥) فالخوف: انفعال نفسي حادٌّ يصيب الإنسان إثر شعوره بالأخطار التي تحدق به، فيهز كيانه هزاً شديداً، وقد يشل حركته ويخرجه عن وضعه الطبيعي حاملاً إياه على اتقاء تلك المخاطر ما استطاع إليه

(١) سورة فاطر من الآية (٢٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني صـ ٢٨٣.

(٣) سنن الترمذي – باب (ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله)، حديث رقم (١٦٣٩)، ٣/ ٢٢٧.

(٤) مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي) – أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي– باب (في اجتناب الأهواء)، حديث رقم (٣٢٢)، ١/ ٣٤٦.

(٥) معجم الفروق اللغوية للعسكري صـ ٢١٧: ٢١٩.

سبيلاً. وبرهان ذلك قوله تعالى عن سيِّدنا موسى – عليه السلام – حين قتل قبطياً فأصبح في المدينة خائفاً يتوقع المكروه ويخشى من افتضاح أمره: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [1] فالتعبير بـ (خائفاً يترقب) يرسم صورة الخائف المترقب الحذر الذي يمشي على مهل مشوب بالتفات مستمر يميناً وشمالاً، خوفاً من العدو الذي قد يلحقه، فلفظ يترقب "يصور هيئة القلِق الذي يتلفت ويتوجس، ويتوقع الشر في كل لحظة، وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك، والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ، كما أنه يضخمها بكلمة (في المدينة) ، فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة، فإذا كان الخائف يترقب في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر". [2] ونظير ذلك ما جاء في الحديث: "عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ يُصَلِّي بِطَائِفَةٍ مَعَهُ، فَيَسْجُدُونَ سَجْدَةً وَاحِدَةً، وَتَكُونُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ الَّذِينَ سَجَدُوا السَّجْدَةَ مَعَ أَمِيرِهِمْ، ثُمَّ يَكُونُونَ مَكَانَ الَّذِينَ لَمْ يُصَلُّوا، وَيَتَقَدَّمُ الَّذِينَ لَمْ يُصَلُّوا فَيُصَلُّوا مَعَ أَمِيرِهِمْ سَجْدَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ يَنْصَرِفُ أَمِيرُهُمْ وَقَدْ صَلَّى صَلَاتَهُ، وَيُصَلِّي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ بِصَلَاتِهِ سَجْدَةً لِنَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ، فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا» قَالَ: يَعْنِي بِالسَّجْدَةِ الرَّكْعَةَ. [3] والحديث: "عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، أَنَّ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَهِرَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – مَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ لَيْلَةً. قَالَ: لَيْتَ رَجُلاً صَالِحًا يَحْرُسُنِيَ اللَّيْلَةَ. قَالَتْ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعْنَا خَشْخَشَةَ السِّلَاحِ، فَقَالَ:

(١) سورة القصص الآية (١٨).

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٣.

(٣) سنن ابن ماجه – باب (ما جاء في صلاة الخوف)، حديث رقم (١٢٥٨)، ١/ ٣٩٩.

مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَقَالَ سَعْدٌ: وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ – ﷺ – فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – ثُمَّ نَامَ".(١)

ومما يدل على الفرق بينهما أيضًا أنه قد ورد النهي عن الخوف والحزن معًا أو النفي لهما معًا في سبعة عشر موضعًا من القرآن الكريم، وهو ما لم يرد ذكره مع الخشية، مما يوحي باختلاف الخشية عن الخوف. وقيام فروق بينهما يشير إليها الاستعمال القرآني الكريم لكلا اللفظين. فكأن الخوف قرين الحزن وأن مشاعرهما تختلط في أغلب الأحيان، وكأنك لا تخف إلا حين رأيت بوادر ما تكره وقوعه وتخاف ضرره وتحزنك آثاره، فكأن الخوف لا يدفع الضرر. أما إذا خشيت فإنك غالبًا تتقي مصير ما تخشى قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢)....". (٣) فالخشية خاصة بالحالة التي تصاحب الضرر المتيقن والخطر المشهود. على خلاف الخوف الذي هو شعور يتعلق بالضرر المنتظر؛ لذا نجد أن القرآن الكريم يشير في استعماله إلى هذا الفارق الدلالي ففي قوله تعالى (وليخش الذين تركوا ....) فقد عبر في جانب الموت بالخشية وفي جانب ما ينتظر اليتامى بالخوف، وذلك – والله أعلم – لأن الموت أمر محقق وشأن عظيم، يضعف كل قوي أمامه ويعجز كل جبار عن رده. أما الخطر الذي قد يتعرض له الصغار بعد موت العائل فأمر محتمل مجهول". (٤) وكذا قوله تعالى (لا تخاف دركا ولا تخشى) ففي جانب توقع

(١) سنن الترمذي ت بشار (٦/ ١٠٨) (باب مناقب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه)، حديث رقم (٣٧٥٦)، (٦/ ١٠٨).

(٢) سورة النور الآية (٥٢).

(٣) الفروق اللغوية وأثرها في التفسير صـ ٢٧٠، ٢٧١.

(٤) أسرار الترادف في القرآن – د/ علي اليمني دردير صـ ٥٧، ٥٨.

الخطر من لحاق فرعون بهم وإيقاعه بهم قال (لا تخاف) بشارة له بالأمان، وأنه لا يقع له مجرد الشعور بالخوف من أن يدركه فرعون ويؤذيه؛ ليشعره بأن أمر فرعون هين وخطره ضعيف. وفي جانب الغرق قال (ولا تخشى) لأن الشعور بالخطر عند قوم يسيرون بين جبال الماء أمر عظيم وخطر متيقن منظور، فكان التعبير بقوله (ولا تخشى) تعبيرًا مناسبًا ليقتلع كل مظاهر الخوف من نفوسهم؛ ولذا حذف المخشي لتذهب النفس فيه كل مذهب، فلا يترك له مصدرا يخشاه. [١] فالخوف إذن أمر مظنون أو متوقع وغير متيقن، أما الخشية فأمر عظيم وخطر متيقن منظور.

أمّا من الناحية النفسية فقد ذهب علماء النفس إلى أن "الخاصية المميزة لاستجابة الخوف هي الانكماش والانسحاب وغالبًا ما يبلغان الذروة في استجابة هروبية". [٢] حيث إن الترقب في الآية يمثل انكماش موسى واختفاءه عن أعين الناس خشية انكشاف أمره، فلمّا أحسّ بدنو الخطر وتوالت الشدائد عليه استحال انكماشه إلى ضرب من الهروب والخروج من المدينة من غير أن تنفك عنه سمة الترقب.

أما (الوجل) فهو وإن فسره مفسرو القرآن الكريم بالخوف إلا أنه في الحقيقة يعد درجة أقل من الخوف، فهو مجرد قلق واندهاش ولم يصل إلى حد الخوف. أو هو "استشعار الخوف وليس الخوف نفسه؛ لأنه عبارة عن "اضطراب النفس لتوقع مكروه". [٣] فهو أقرب ما يكون إلى التوجس. يقال: وجل يوجل وجلا فهو وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [٤] ﴿وَنَبِّئْهُمْ

(١) السابق صـ ٥٨.

(٢) القرآن وعلم النفس صـ ٦٦.

(٣) روح المعاني ٧/ ٣٠٤، والتفسير المظهري ٥/ ٣٠٧.

(٤) سورة الأنفال من الآية (٢).

عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ [١] كذا فرق بينهما أبو هلال العسكري فقال: "إن الخوف خلاف الطمأنينة وجل الرجل يوجل وجلا وإذا قلت ولم يطمئن. ويقال: أنا من هذا على وجل، ومن ذلك على طمأنينة. ولا يقال على خوف في هذا الموضع، وفي القرآن (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي: إذا ذكرت عظمة الله وقدرته لم تطمئن قلوبهم إلى ما قدموه من الطاعة وظنوا أنهم مقصرون فاضطربوا من ذلك وقلقوا، فليس الوجل من الخوف في شيء، وخاف متعد، ووجل غير متعد، وصيغتاهما مختلفتان أيضا، وذلك يدل على فرق بينهما في المعنى". [٢] وبهذا جاء في الحديث: "عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، قَالَتْ: "إِنَّمَا الْوَجَلُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ أَمَا يَجِدُ لَهَا قَشْعَرِيرَةً؟ " قَالُوا بَلَى، قَالَ: "فَادْعُوا إِذَا وَجَدْتُمْ ذَلِكَ فَإِنَّ الدُّعَاءَ يُسْتَجَابُ عِنْدَ ذَلِكَ". [٣]

وأما (الفزع) فهو: "انقباضٌ ونِفارٌ يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع، ولا يقال: فزعت من الله، كما يقال: خفت من الله". [٤] يقول ابن منظور: "الفَزَعُ: الفَرَق والذُّعر من الشيء، وهو في الأصل مصدر. فرع منه وفَزَع فَزَعاً وفَزْعاً وفِزْعاً وأفزعه وفَزَّعه: أخافه وروعه، فهو فَزِعٌ... ويقال: "فَزِع يَفْزَع فزعاً، إذا ذُعِر...". [٥] قال أبو هلال العسكري: "الفرق بين الفزع والخوف والهلع: أن الفزع مفاجأة الخوف عند هجوم غارة أو صوت هدة وما أشبه

(١) سورة الحجر الآيات (٥١، ٥٢، ٥٣).

(٢) كتاب الفرق صـ ٢٠٩.

(٣) شعب الإيمان – باب (ذكر فصول في الدعاء يحتاج إلى معرفتها)، حديث رقم (١٠٩٨)، ٢/ ٣٨٢.

(٤) التفسير المظهري ٥/ ٣٠٧.

(٥) لسان العرب (باب العين فصل الفاء ف ز ع)

ذلك، وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل، وتقول: فزعت منه فتعديه بمن، وخفته فتعديه بنفسه. فمعنى خفته أي هو نفسه خوفي، ومعنى فزعت منه أي: هو ابتداء فزعي لأن من لابتداء الغاية وهو يؤكد ما ذكرناه". (١) ومن ذلك الحديث: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: "مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَجْرَى عَلَيْهِ أَجْرَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَتَّانِ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِنًا مِنَ الْفَزَعِ". (٢)

وأما (الهلع) فهو: سرعة الجزع عند مسّ المكروه وسرعة المنع عند مسّ الخير، من قولهم: ناقة هلواع سريعة السير. وعن أحمد بن يحيى قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع؟ فقلت: قد فسره الله، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره، وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدّة الجزع، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس. (٣) فهو أسوأ الجزع، وقيل: "الَّذِي يَجْزَعُ وَيَفْزَعُ مِنَ الشَّرِّ، وَيَحْرِصُ وَيَشِحُّ عَلَى الْمَالِ، وَقِيلَ: لَا يَصْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ". (٤) وقيل: الهلوع على ما فسره الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً﴾ (٥) ولا يسمى هلوعًا حتى تجتمع فيه هذه الخصال". (٦) ومن ومن ذلك ما جاء في الحديث: "حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، عَنِ الحَسَنِ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ – ﷺ – مَالٌ فَأَعْطَى قَوْمًا وَمَنَعَ آخَرِينَ، فَبَلَغَهُ أَنَّهُمْ عَتَبُوا، فَقَالَ: «إِنِّي أُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ

(١) الفروق اللغوية بترتيب وزيادة صـ ٤٠٤.
(٢) سنن ابن ماجه – باب (فضل الرباط في سبيل الله)، حديث رقم (٢٧٦٧)، ٢/ ٩٢٤.
(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤/ ٦١٢.
(٤) شرح السنة للبغوي ١٤/ ٢٥٢.
(٥) سورة المعارج الآيات (١٩، ٢٠، ٢١)
(٦) الفروق اللغوية بترتيب وزيادة صـ ٤٠٤.

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ» مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ، فَقَالَ عَمْرٌو: مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – حُمْرَ النَّعَمِ". (١)

وعلى هذا يتبين لنا من خلال ما سبق أن الكلمات الثلاث (الوجل، والفزع، والهلع) تشتركن في معنى الخوف، بيد أن الوجل استشعار الخوف الذي يؤدى إلى القلق وعدم الطمأنينة، وأما الفزع فهو خوف مشتمل على انقباض وذعرٍ ونفارٍ يعتري الإنسان من الشيء المخيف؛ لذ لا يقال: فزعت من الله؛ لأنه لا ينفر مؤمن بالله من الله أبدًا، وقد يؤدِّى الفزع الناتج عن مفاجأة الخوف إلى الفَرَق الذي هو تفرق بالقلب، وأما الهلع فشدة الجزع عند حدوث مكروه.

أما (الرعب) فيدل على الخوف الشديد لا مجرد الخوف فقط، فهو أشد من الفزع الذي هو أشد من الخوف؛ لما فيه من سلب الأَمن والطمأنينة من القلوب مطلقًا، وذلك حين يشعر الإنسان بالأخطار التي تحدق به من كل جانب فيزيغ بصره ويرتعش جسده ولا يستطيع حراكًا من شدة الخوف، وقد جاء القرآن الكريم مصورًا للحالة النفسية التي كان عليها يهود بني النظير في غزوة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢)، كذا

(١) صحيح البخاري – باب (قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا})، حديث رقم (٧٥٣٥)، ٩/ ١٥٦.

(٢) سورة الحشر الآيات (٢، ٣، ٤).

ألقى – ﷻ – الرعب الشديد في قلوب يهود بنى قريظة، وأنزلهم من حصونهم، ومكن المسلمين من رقابهم بحيث صاروا مستسلمين لهم، ونازلين على حكمهم. فأوَرث المسلمين بسبب هذا الرعب أرض هؤلاء اليهود وزروعهم كما أورثهم ديارهم أي حصونهم وأموالهم التي تركوها من خلفهم، كنقودهم ومواشيهم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾ [1] ومثله الحديث: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ – ﷺ – أَنَّهُ قَالَ: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ".[2]

وكذا تفترق كلمة **(الرهبة)** عن الخوف وعن الكلمات الأخرى السابقة؛ ذلك أن الرهبة طول الخوف واستمراره ومن ثم قيل للراهب: راهب؛ لأنه يديم الخوف، والخوف أصله من قولهم: جمل رهب، إذا كان طويل العظام مشبوح الخلق ... وقال علي بن عيسى: الرهبة خوف يقع على شريطة لا مخافة، والشاهد أن نقيضها الرغبة وهي السلامة من المخاوف مع حصول فائدة، والخوف مع الشك بوقوع الضرر، والرهبة مع العلم به يقع على شريطة كذا وإن لم تكن تلك الشريطة لم تقع. [3] قال تعالى: ﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾. [4] أي: أشد مرهوبية. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ

(١) سورة الأحزاب الآيتان (٢٦، ٢٧).

(٢) صحيح مسلم – باب (كتاب المساجد ومواضع الصلاة) – حديث رقم (٥٢٣)، ١/ ٣٧٢.

(٣) الفروق اللغوية صـ ٢٤١.

(٤) سورة الحشر الآية (١٣).

النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [١] أَي: أي: أصابتهم رهبة عظيمة. فالرهبة: والرهب "مخافة مع تحرز واضطراب". [٢] فهي أشد من الخوف؛ لأنها خوف متواصل من مواقف أو نشاطات معينة عند حدوثها أو مجرد التفكير فيها أو أجسام معينة أو أشخاص عند رؤيتها أو التفكير فيها. هذا الخوف الشديد والمتواصل يجعل الشخص المصاب عادة يعيش في ضيق وضجر لمعرفته بهذا النقص. وفي الحديث: "عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: "إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الفِطْرَةِ فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ " فَقُلْتُ أَسْتَذْكِرُهُنَّ: وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. قَالَ: لاَ، «وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»". [٣] والحديث: "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: " أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ، أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ، فَإِنَّهُ لَا يُقَرِّبُ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يُبَاعِدُ مِنْ رِزْقٍ، أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ أَوْ يُذَكِّرَ بِعَظِيمٍ". [٤] كذا فرق د/ محمد محمد داود بين بعضها كالخشية والخوف والرهبة، في حين أجاز الترادف بين بعضها كالخوف والوجل والفزع وقال إنها مترادفة تماما. [٥] وقد تبين الفرق بينها.

(١) سورة الأعراف الآية (١١٦).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف صـ ١٨٢.

(٣) صحيح البخاري – باب (إذا بات طاهرا وفضله)، حديث رقم (٦٣١١)، ٨/ ٦٨.

(٤) مسند أحمد – باب (مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه)، حديث رقم (١١٤٧٤)، ١٨/ ٥٤.

(٥) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم – د/ محمد محمد داود صـ ٢٣٧، ٢٣٨.

٢. الفرق بين الغضب والسخط:

يرى بعض العلماء أن الغضب والسخط لفظان مترادفان ويمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر في أي سياق للتعبير عن الانفعال النفسي الذي يسيطر على الإنسان حين يتضجر أو ينزعج من أمر ما. (١) وبالبحث والتأمل في السياق الذي يستعمل فيه كلا اللفظين تبين أن بينهما فرقًا وأنهما ليسا على درجة واحدة، وأن مجال الاستعمال الذي يستعمل فيه لفظ السخط مختلف عن مجال الاستعمال الذي يستعمل فيه لفظ الغضب.

فالغضب هو: انفعال نفسي ينشأ إذا ما أحسَّ الإنسان بأن هناك عائقًا ما يقف دون تحقيق غاياته، ففي هذه الحالة يندفع الإنسان ويثور ويعبئ قواه وتزداد طاقاته العضلية للتغلب على العقبات التي تعترض الوصول إلى أهدافه. (٢) وقد وضح الإمام الرازي كيفيته فقال: "الْغَضَبَ حَالَةٌ تَحْصُلُ عِنْدَ غَلَيَانِ دَمِ الْقَلْبِ وَالدَّمُ عِنْدَ الْغَلَيَانِ يَصِيرُ أَعْظَمَ حَجْمًا وَمِقْدَارًا فَتَتَمَدَّدُ تِلْكَ الْأَوْعِيَةُ عِنْدَ ازْدِيَادِ مَقَادِيرِ الرُّطُوبَاتِ فِي الْبَدَنِ، فَكُلَّمَا كَانَ الْغَضَبُ أَشَدَّ كَانَ الْغَلَيَانُ أَشَدَّ، فَكَانَ الِازْدِيَادُ أَكْثَرَ، وَكَانَ تَمَدُّدُ الْأَوْعِيَةِ وَانْشِقَاقُهَا وَتَمَيُّزُهَا أَكْثَرَ". (٣) وفي القرآن الكريم تصوير دقيق ووصف عجيب لرسم هذه الحالة النفسية التي سيطرت على سيدنا موسى – عليه السلام – حين عاد إلى قومه ووجدهم يعبدون العجل الذي صنعه لهم السامري من الذهب فألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ

(١) جواهر الألفاظ – قدامة بن جعفر الكاتب صـ ٤٠، ونجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد – إبراهيم اليازجي ١/ ٢٦٤.

(٢) مقالات في علم النفس – محمد مصطفى الشعبيني صـ ١٥٢.

(٣) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير – الرازي ٣٠/ ٥٨٧.

أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١)، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ (٢) وكذا صور القرآن الكريمة هذه الحالة الانفعالية التي سيطرت على موسى – عليه السلام – في سورة طه حيث جاء فيها قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ (٣) فقد ارتبط الغضب بحالة انفعالية أخرى وهي الحزن الذي عبر عنه بقوله (أسفا) والْأَسَفُ: مَنْزِلَةٌ وَرَاءَ الْغَضَبِ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ. (٤) وقد نتج عن هذه الحالة الانفعالية (الغضب الممزوج بالحزن العميق) حركات لا شعورية صدرت عن موسى – عليه السلام – فقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ مِنْ آثَارِ غَضَبِ مُوسَى إِلْقَاءَهُ الْأَلْوَاحَ الَّتِي فِيهَا التَّوْرَاةُ، وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدّة الضجر عند استماعه حديث العجل؛ غضبًا لله وحمية لدينه، وكان في نفسه حديدًا شديد الغضب... وَأَخذه بِرَأْسِ أَخِيهِ أي بشعر رأسه يَجُرُّهُ إِلَيْهِ بذؤابته، وذلك لشدّة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٠).
(٢) سورة طه الآية (٨٦).
(٣) سورة طه الآيات (من ٩٢ إلى ٩٧).
(٤) جامع البيان – الطبري ١٠/ ٤٥٠.

وذهب بفطنته. [١] وكذا يبدو انفعال الغضب أيضاً في أقوال موسى – عليه السلام – من الصيغ الاستفهامية المتلاحقة الواردة في سورة طه (ألم يعدكم، أفطال، ما منعك، أفعصيت، فما خطبُك) حيث جاء الاستفهام فيها دالا على معاني التقريع، والتوبيخ، والتأنيب، ونحو ذلك مما يعكس هذه الحالة النفسية التي تملكها الغضب الشديد والحزن العميق على مخالفة قومه لوعده، وكفرهم بالله لعبادتهم العجل الذي صنعه لهم السامري وأضلهم به. وقد جاءت السنة النبوية الشريفة أيضًا مصورة لهذه الحالة النفسية التي كان عليها موسى – عليه السلام – بنفس الأسلوب، ففي الحديث: "عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْبَرِ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى لَوْ لَمْ يُعَجِّلْ لَقُصَّ مِنْ حَدِيثِهِ غَيْرُ الَّذِي قُصَّ". [٢] أما السخط فهو: إظهار التقبيح. [٣] وقيل السخط: الغضب الشديد المقتضي للعقوبة، وهو من الله إنزال العذاب. [٤] وهو مِنْ صِفَاتِ الْقَلْبِ، وليس من صفاتُ الأَفعال، وصفات الأفعال أَدْنى رُتبةً مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ. [٥] وبهذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [٦]

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – للزمخشري ٢/ ١٦١، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤/ ٨٠.

(٢) المستدرك على الصحيحين – أبو عبد الله الحاكم النيسابوري – باب (تفسير سورة طه) – الحديث رقم (٣٤٣٥)، ٢/ ٤١٢.

(٣) تفسير الشعراوي ٣/ ١٨٤٨.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف صـ ١٩٢.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر– ابن الأثير – تح/ طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي ٢/ ٢٣٢.

[١] وقوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [٢] وفي الحديث الشريف: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: رِضَاءُ اللَّهِ فِي رِضَاءِ الْوَالِدِ، وَسَخَطُ اللَّهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ". [٣] وفيه: "عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ – ﷻ – إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ، فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ". [٤] وعلى هذا يكون الغضب أعم من السخط. فالسخط لَا يكون إِلَّا من الكبراء والعظماء دون الْأَكفاء والنظراء، وَالْغَضَب يسْتَعْمل فِي النَّوْعَيْنِ. [٥] قال الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان: "إن قيل: "ما الفرق بين الغضب والسخط؟ وهل هما بمعنى واحد؟ فالجواب: إذا أراد السائل صفات الله، فليسا بمعنى واحد، وإن كانت بعض معاني السخط قد تكون قريبة من معنى الغضب، ولكن هذه صفة، وهذه صفة، أما للناس فهذا شيء معروف؛ لأن الغضب من أثر السخط". [٦] كما فرق بينهما أبو هلال العسكري قال: "الفرق "الفرق بين الغضب والسخط: أن الغضب يكون من الصغير على الكبير ومن الكبير على الصغير، والسخط لا يكون إلا من الكبير على الصغير. يقال: سخط الأمير على الحاجب، ولا يقال: سخط الحاجب على الأمير. ويستعمل الغضب فيهما، والسخط إذا عديته بنفسه فهو خلاف الرضا يقال: رضيه وسخطه، وإذا

(١) سورة آل عمران الآية (١٦٢).

(٢) سورة المائدة الآية (٨٠).

(٣) صحيح ابن حبان – باب (ذكر رجاء تمكن المرء من رضا الله عز وجل) – حديث رقم (٤٢٩)، ٢/ ١٧٢.

(٤) شرح السنة للبغوي – باب (شدة المرض) – الحديث رقم (١٤٣٥)، ٥/ ٢٤٥.

(٥) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية – أبو البقاء الكفوي صـ ٥١٥.

(٦) شرح فتح المجيد – عبد الله بن محمد الغنيمان – ١٤٢/ ٢٣، بترقيم الشاملة آليا.

عديته بعلى فهو بمعنى الغضب تقول سخط الله عليه إذا أراد عقابه". [١] وقيل: الغضب شدة السخط والإنكار ويظهر أثره على الجوارح، أما السخط فهو كراهة الشيء وعدم الرضا به ولا يظهر أثره على الجوارح. [٢]

٣. الفرق بين الغم والحسرة والندم:

ذكر بعض العلماء أن الغم والحسرة والأسف والندم ألفاظ مترادفة في التعبير عن حالة النفس المكروبة. [٣] وبتأمل مواضع استعمال كل منها في القرآن الكريم والسنة تبين تقاربها دلاليًّا وعدم ترافقها ترادفًا تامًا مما يجعلها في إطار الألفاظ المتقاربة وليس المترادفة.

فأصل (الغم): اللبس من قول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ثُمَّ لا يكُنْ أمرُكُم عليكُم غُمّةً﴾ فهذا صحيح، وهو من غم عليهم الهلال، إذا التبس عليهم. [٤] وبهذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ﴾ [٥] ومنه الغَمام: أي الغَيْم الأَبيض، وَإِنَّمَا سُمِّيَ غَمَامًا؛ لأَنه يَغُمُّ السَّمَاءَ أَيْ يَسْتُرُهَا، وَسُمِّيَ الغَمّ غَمّاً لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْقَلْبِ. وَقَوْلُهُ – ﷻ –: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ﴾ [٦] أَراد أَراد غَمًّا مُتَّصِلًا، فَالْغَمُّ الأَول الجِراح وَالْقَتْلُ، وَالثَّانِي مَا أُلقي إِلَيْهِمْ مِنْ قَبْلَ النَّبِيِّ – ﷺ – فأَنساهم الْغَمَّ الأَول. وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ: عَتَبُوا عَلَى عُثْمَانَ

(١) الفروق اللغوية صـ ٣٨٦.

(٢) ينظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم صـ ٢٨٦، ٢٨٧.

(٣) ينظر: الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة – باب الغم صـ ١١٢، ونجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد – فصل في التندم – ١/ ١٩٩، ٢٧٤، ٢٧٥.

(٤) كتاب الألفاظ – ابن السكيت صـ ٣٠٢.

(٥) سورة طه من الآية (٤٠).

(٦) سورة آل عمران من الآية (١٥٣).

مَوْضِعَ الغَمامة المُحْماة. وهِيَ السَّحَابَةُ وَجَمْعُهَا الغَمام، وَأَرَادَتْ بِهَا العُشب والكَلأَ الَّذِي حَمَاهُ، فَسَمَّتْهُ بِالْغَمَامَةِ كَمَا يُسَمَّى بِالسَّمَاءِ، أَرَادَتْ أَنه حَمى الكَلأَ وَهُوَ حَقٌّ جَمِيعِ النَّاسِ. (١) ثم أطلق على الكرب والأمر المظلم. (٢) فهو يدل على الكرب الذي يأخذ بالنفس والكآبة وسوء الحال والانكسار؛ لأنه "ينقبض القلب معه". (٣) ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ (٤)

ومنه الحديث: "عَنْ أَنَسٍ، وَذَكَرَ رَجُلًا، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: اسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – النَّاسَ فِي الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ» ، قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ– ﷺ – قَالَ: ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ» قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ – ﷺ – قَالَ: ثُمَّ عَادَ النَّبِيُّ – ﷺ – فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرَى أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَتَقْبَلَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ، قَالَ: فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْغَمِّ، قَالَ: فَعَفَا عَنْهُمْ، وَقَبِلَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ، قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ: {لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}. (٥)

أما (الحسرة) فأصلها "التَّلَهُّفُ عَلَى الشَّيْءِ الْفَائِتِ. وَيُقَالُ حَسِرْتُ عَلَيْهِ حَسَرًا وَحَسْرَةً، وَذَلِكَ انْكِشَافُ أَمْرِهِ فِي جَزَعِهِ وَقِلَّةِ صَبْرِهِ. وَمِنْهُ نَاقَةٌ حَسْرَى إِذَا

(١) لسان العرب (غ م م ١٢/ ٤٤٤).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف – صـ ٢٥٣.

(٣) الفروق اللغوية – أبو هلال العسكري صـ ٢٦٦.

(٤) سورة آل عمران من الآية (١٥٤).

(٥) مسند أحمد مخرجا – باب (مسند أنس بن مالك رضي الله عنه) – حديث رقم (١٣٥٥٥)، ٢١/ ١٨٠

ظَلَعَتْ. وَحَسَرَ الْبَصَرُ إِذَا كَلَّ، وَهُوَ حَسِيرٌ، وَذَلِكَ انْكِشَافُ حَالِهِ فِي قِلَّةِ بَصَرِهِ وَضَعْفِهِ. وَالْمُحَسَّرُ، الْمُحَقَّرُ، كَأَنَّهُ حُسِرَ، أَيْ جُعِلَ ذَا حَسْرَةٍ". (١) فهي "الغم على ما فات والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه. وعبر بعضهم بقوله: الحسرة بلوغ النهاية في التلهف حتى يبقى القلب حسيرًا لا موضع فيه لزيادة التلهف كالبصر الحسير لا قوة للنظر فيه". (٢) قال الرازي: "لَا يَتَحَسَّرُ الْمَرْءُ عَلَى أَمْرٍ سَبَقَ مِنْهُ إِلَّا وَكَانَ يَصِحُّ مِنْهُ أَنْ يَفْعَلَهُ". (٣) وبهذا المعنى ورد في قول الله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (٤) وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.... أَيْ: أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ لَهُ: يَوْمُ الْحَسْرَةِ؛ لِشِدَّةِ نَدَمِ الْكُفَّارِ فِيهِ عَلَى التَّفْرِيطِ، وَقَدْ يَنْدَمُ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾(٥)، وَقَوْلِهِ:﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (٦)، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. (٧) ومنه الحديث: "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ – ﷺ – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: "يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ

(١) معجم مقاييس اللغة (ح س ر).
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف صـ ١٤٠.
(٣) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير – الرازي ٢٧/ ٤٦٧.
(٤) سورة الزمر الآية (٥٦)
(٥) سورة الأنعام من الآية (٣١)
(٦) سورة البقرة من الآية (١٦٧)
(٧) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٤٢٢.

هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ}، وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا {وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}".(١)

وأما (الندم) فهو الْأَثر عَن ابْن الْأَعرَابِي سُمي للزومه، من النَّدَم وَهُوَ من الغمِّ اللَّازِم إِذْ ينْدَم صَاحبه لما يعثر عَلَيْهِ فِي الْعَاقِبَة من سوء آثاره. (٢) فهو لفظ يدل على الشعور الذي يحس به الإنسان حين يرى نتيجة سيئة أو عاقبة مخزية لفعل أدى إليها، أو حين يواجه مصيره المحتوم ويتذكر ما مضى آسفاً عليه ومتمنياً لو لم يقدم عليه، وبهذا المعنى ورد في قول الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٣) وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ: «إِيَّاكُمْ ورَضاعَ السُّوءِ؛ فَإِنَّهُ لابدّ مِنْ أَنْ يَنْتَدِمَ يَوْمًا» أَي: يظهَر أثرُه. ومن هنا يكون الندم: على غم يصيب الإنسان، ويتمنى أن ما وقع منه لم يقع. (٤) أو: التحزُّن والتوجُّعُ على أنْ فَعَلَ وتمنَّى كونَه لم يفعل. (٥) ومن ذلك الحديث: "عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: يَا عَائِشَةُ، إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي

(١) صحيح البخاري – بَابُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) حديث رقم (٤٧٣٠)، ٦/ ٩٣.

(٢) الفائق في غريب الحديث (٣/ ٤١٨)، ومجمع بحار الأنوار (ن د م ٤/ ٦٧٨)

(٣) سورة المائدة الآية (٣١).

(٤) التعريفات صـ ٢٤٠.

(٥) التعريفات الفقهية صـ ٢٢٦.

اللهَ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الذَّنْبِ: النَّدَمُ وَالِاسْتِغْفَارُ". [١] لذا يعرف الندم في علم النفس بأنه: "حالة انفعالية تنشأ عن شعور الإنسان بالذنب وأسفه على ارتكابه، ولومه لنفسه على ما فعل، وتمنيه لو أنه لم يفعل ذلك". [٢]

ومن هنا يتبين لنا أن لكل لفظ من هذه الألفاظ الثلاثة وهي الغم والحسرة والندم مجال يستعمل فيه وسياق محدد يختص به خلافا للفظين الآخرين، وبهذا تكون ليست مترادفة في الدلالة النفسية التي تصيب الإنسان عند فوات أمر كان يتمناه. فالْحَسْرَةُ: أَشَدُّ النَّدَمِ وَالتَّلَهفِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي فَاتَ وَلَا يُمْكِنُ تَدَارَكُهُ [٣] وَقَالَ الزَّجَّاجُ فِي تَفْسِيرِ قَوْله – ﷻ –: {ياحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} الحَسْرَةُ: أَشَدُّ النَّدَمِ حَتَّى يَبْقَى النَّادِمُ كالحَسِيرِ من الدّوَابِّ الّذِي لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ. [٤] وقال ابن سيدة: "الحَسْرَةُ: أَن يركب الْإِنْسَان من شدَّة النَّدَم مَا لَا نِهَايَة بعده. [٥] وعلى هذ تكون الْحَسْرَة غم يَتَجَدَّد لفوت فَائِدَة، فَلَيْسَ كل غم حسرة، والأسف حسرة مَعهَا غضب أَو غيظ والآسف الغضبان المتلهف على الشَّيْء ثمَّ كثر ذَلِك حَتَّى جَاءَ فِي معنى الْغَضَب وَحده فِي قَوْله تَعَالَى: (فَلَمَّا آسفونا انتقمنا مِنْهُم) أَي أغضبونا، وَاسْتِعْمَال

(١) مسند أحمد ط الرسالة – باب (مسند الصديقة عائشة بنت الصديق) – حديث رقم (٢٦٢٧٩)، ٤٣/ ٣١٤.

(٢) القرآن وعلم النفس صـ٩٥.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٤٢٢.

(٤) تهذيب اللغة (باب الثلاثي الصحيح الحاء والسين والراء ٤/ ١٦٨)، وتاج العروس (ح س ر ١١/ ١٣).

(٥) المحكم والمحيط الأعظم – (كتاب الحاء باب الثلاثي الصحيح الحاء والسين والراء).

(٥) التعريفات الفقهية صـ ٢٢٦.

الْغَضَب فِي صِفَات الله تَعَالَى مجَاز وَحَقِيقَته إِيجَاب الْعقَاب للمغضوب عَلَيْهِ. [١]

٤. الفرق بين الحزن والبث:

الحزن والبث حالتان نفسيتان تعتريان الإنسان إذا نزل به مكروه يصعب على النفس تحمله من شدة بلاء كأن يفقد عزيزًا مثلا، فكلاهما انفعال مضاد للفرح والسرور، وكلاهما يعبر عن حالة نفسية تحدث عادةً إذا فقد الإنسان عزيزاً كما في قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [٢] أو شيئاً ذا قيمة، أو حلّت به كارثة، أو أخفق في تحقيق أمر هام ولعل منه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [٣] وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لله وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنَاً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾[٤] فقوله (وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنَاً) تعبير عن هذا التأثر النفسي؛ لأن الحزن غالبًا يتبعه البكاء أو امتلاء العينين بالدمع الغزير بطريقة لا شعورية قد تؤدي أحيانا إلى العمى وفقد البصر الذي هو من لوازم ابيضاض العينين كما سيأتي، فهو تعبير عن "حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع؛ ليؤدي ما لا يؤديه القول، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق

(١) السابق نفسه.

(٢) سورة القصص الآية (١٣).

(٣) سورة النمل الآية: (٧٠).

(٤) سورة التوبة الآيتان (٩١، ٩٢).

العنيف". [١] وقد قال بترادفهما بعض العلماء [٢] ومنهم أبو علي الفارسي، الذي جعل الترادف بالمخالفة بين الألفاظ أسهل من إعادتها أنفسها، وتكريرها ألا ترى أن في التنزيل العزيز: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [٣] والغرابيب هي السود عند أهل اللغة، فحسن التكرير لاختلاف اللفظين، ولو كان: غرابيب غرابيب، لم يكن سهلًا". [٤] وذلك في رده على من قال بعدم وجود الترادف مستدلا بالآية الكريمة من عطف الحزن على البث بأن الشيء لا يعطف على نفسه؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، وبعض الألفاظ التي قالوا بترادفها قد وردت معطوفة.

والرأي عندي أنهما وإن استعملا في الدلالة على الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان إذا ألمت به مصيبة أو مكروه شديد، إلا أن بينهما فرقًا وإن استعملا في سياق واحد وهو تصوير الحالة النفسية التي كان عليها سيدنا يعقوب – عليه السلام – فقد كان دائم الحسرة على يوسف حتى ابيضّت عيناه من شدة البكاء على فقد ولده يوسف ومن شدة كتم غضبه، وقد صور القرآن الكريم هذه الحالة النفسية التي كان عليها في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [٥] فالتركيب أي تركيب العطف يقتضي التغاير؛ لأن الشيء لا يعطف

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٦٢.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ابن الأثير ٢/ ١٦٢، وتفسير ابن عرفة – محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي ٢/ ١٠٨.

(٣) سورة فاطر من الآية: (٢٧).

(٤) المسائل المشكلة – أبو علي الفارسي صـ ٢١٥، ٢١٦.

(٥) سورة يوسف الآيتان: (٨٥، ٨٦).

على نفسه وإنما على مغاير له، مما يوحي بأن بين اللفظين فروقا دلالية؛ ذلك أن البث أشد من الحزن؛ مما ينتج عنه عدم الصبر وإظهار الشكوى، فمعنى أشكو بثي: "أي عظيم حزني إذ البث الذي لا يصبر عليه حتى يبث إلى الغير". (١)

وكذا فرق بينهما بعض علماء اللغة قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُ: "الْبَثُّ أَشَدُّ الْحُزْنِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنْ صُعُوبَتِهِ لَا يَطِيقُ حَمْلَهُ، فَيَبُثُّهُ أَيْ يَنْشُرُهُ". (٢) وقال ابن قتيبة: "البثُّ: أشد الحزن، سمي بذلك؛ لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثّه". (٣) ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث: "حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الثَّوْرِيُّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ: «مَنْ بَثَّ لَمْ يَصْبِرْ» ثُمَّ قَرَأَ: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}" (٤) وبهذا المعنى أيضًا جاء في الحديث: "عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا، قَالَتِ الْأُولَى: «زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، لَا سَهْلٍ فَيُرْتَقَى، وَلَا سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ» قَالَتِ الثَّانِيَةُ: «زَوْجِي لَا أَبُثُّ خَبَرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرَهُ، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ» قَالَتِ الثَّالِثَةُ: «زَوْجِيَ الْعَشَنَّقُ، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ» قَالَتِ الرَّابِعَةُ: «زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لَا حَرٌّ، وَلَا قُرٌّ، وَلَا مَخَافَةَ، وَلَا سَآمَةَ» قَالَتِ الْخَامِسَةُ: «زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ» قَالَتِ السَّادِسَةُ: «زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ، وَإِنِ اضْطَجَعَ

(١) أيسر التفاسير للجزائري ٢/ ٦٤٠.

(٢) البحر المحيط في التفسير ٦/ ٣١٥

(٣) زاد المسير في علم التفسير – علي بن محمد الجوزي ٢/ ٤٦٥، ومختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل – عبد الله بن أحمد بن علي الزيد ٤/ ٤٦٣.

(٤) جامع البيان ١٣/ ٣١٣.

الْتَفَّ، وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ، لِيَعْلَمَ الْبَثَّ»...". [١] (ولا يولج الكف) أي: لا يدخل كفه داخل ثوبي (ليعلم البث) أي: الحزن الذي عندي لعدم الحظوة منه. فجمعت في ذمها له بين اللؤم والبخل وسوء العشرة مع أهله، وقلة رغبته في النكاح مع كثرة شهوته في الطعام والشراب، وهذا غاية الذم عند العرب، فإنها تذم بكثرة الطعام والشرب وتتمدح بقلتهما وكثرة الجماع؛ لدلالة ذلك على صحة الذكورية والفحولية. [٢] فليس في البث صبر. فإن قيل: فكيف يكون الصبر مع الشكوى؟ قيل: ليس هذا إلا شكاية من النفس إلى خالقها وهو جائز ألا ترى أن أيوب – عليه السلام – قال لربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. [٣] وقال تعالى مع شكواه إلى ربه في حقه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.[٤] لأنه شكا منه إليه وبكى منه عليه فهو المعذور لديه؛ لأن حقيقة الصبر ومعناه الحقيقي حبس النفس ومنعها عن الشكوى إلى الغير وترك الركون إلى الغير وتحمل الأذى والابتلاء لصدوره من قضائه وقدره .... وذلك لأن المحب لا يصبر عن حضرة المحبوب فلا يزال يعرض حاله وافتقاره الى حضرته ولسان العشق لسان التضرع والحكاية لا لسان الجزع والشكاية.... يعنى شكاية العارف الواقف في صورة الشكوى حكاية حاله وتضرعه وافتقاره الى حبيبه. [٥] ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث: "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: " كَانَ لِيَعْقُوبَ أَخٌ مُؤَاخٍ فَقَالَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ: يَا يَعْقُوبُ مَا الَّذِي أَذْهَبَ بَصَرَكَ؟ وَمَا الَّذِي قَوَّسَ ظَهْرَكَ؟ قَالَ: أَمَّا الَّذِي أَذْهَبَ بَصَرِي فَالْبُكَاءُ عَلَى يُوسُفَ، وَأَمَّا الَّذِي قَوَّسَ ظَهْرِي

(١) السنن الكبرى – النسائي – باب (شكر المرأة لزوجها) – حديث رقم (٩٠٨٩)، ٨/ ٢٤١.
(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري – أبو العباس شهاب الدين القسطلاني ٨/ ٨٤.
(٣) سورة الأنبياء من الآية (٨٣)
(٤) سورة ص من الآية (٤٤).
(٥) روح البيان – إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي ٤/ ٣٠٨.

فَالْحُزْنُ عَلَى بِنْيَامِينَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا يَعْقُوبُ إِنَّ اللَّهَ يُقْرِئُكَ السَّلامَ وَيَقُولُ لَكَ: أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَشْكُوَ إِلَى غَيْرِي؟ فَقَالَ يَعْقُوبُ: إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَشْكُو يَا يَعْقُوبُ، ثُمَّ قَالَ يَعْقُوبُ: أَيْ رَبِّ أَمَا تَرْحَمُ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ؟ أَذْهَبْتَ بَصَرِي وَقَوَّسْتَ ظَهْرِي فَارْدُدْ عَلَيَّ رَيْحَانَتِي أَشُمُّهُ شَمَّةً قَبْلَ الْمَوْتِ ثُمَّ اصْنَعْ بِي يَا رَبِّ مَا شِئْتَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا يَعْقُوبُ إِنَّ اللَّهَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ وَيَقُولُ: أَبْشِرْ وَلْيَفْرَحْ قَلْبُكَ فَوَعِزَّتِي لَوْ كَانَ مَيِّتَيْنِ لَنَشَرْتُهُمَا لَكَ، اصْنَعْ طَعَامًا لِلْمَسَاكِينِ، فَإِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ الْمَسَاكِينُ، وَتَدْرِي لِمَ أَذْهَبْتُ بَصَرَكَ وَقَوَّسْتُ ظَهْرَكَ وَصَنَعَ إِخْوَةُ يُوسُفَ بِيُوسُفَ مَا صَنَعُوا؟ لأَنَّكُمْ ذَبَحْتُمْ شَاةً فَأَتَاكُمْ فُلانٌ الْمِسْكِينُ وَهُوَ صَائِمٌ فَلَمْ تُطْعِمُوهُ مِنْهَا، فَكَانَ يَعْقُوبُ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَرَادَ الْغَدَاءَ أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى: أَلَا مَنْ أَرَادَ الْغَدَاءَ مِنَ الْمَسَاكِينِ فَلْيَتَغَدَّ مَعَ يَعْقُوبَ، وَإِذَا كَانَ صَائِمًا أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى: مَنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُفْطِرْ مَعَ يَعْقُوبَ". [١] فالبث هو الهم الشديد سمي بذلك لعدم قدرة صاحبه على تحمله حين يجتمع ويتكاثف فيضيق الصدر به ويضعف العزم عن كتمانه فيبثه الناس ويتخفف إليهم منه. [٢] خلافا للحزن الذي أصله في اللغة خشونة الشيء وشِدّةٌ فيه. فمن ذلكَ الحَزْن، وهو ما غلُظ من الأرض.[٣] فقد يسكن القلب ولا يفارقه فقد رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – أنه بَكَى عَلَى وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ – عليه السلام – وَقَالَ: "إِنَّ الْقَلْبَ لَيَحْزَنُ وَالْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَلَا نَقُولُ: مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ وَإِنَّا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم – باب (تفسير سورة يوسف) – حديث رقم (٣٣٢٨)، ٢/ ٣٧٨، وشعب الإيمان للبيهقي – باب (في كراهية من رد سائلا)، حديث رقم (٣١٣١)، ٥/ ٨٥.

(٢) أسرار الترادف في القرآن – د/ علي اليمني صـ ٦٨.

(٣) معجم مقاييس اللغة (ح ز ن).

لَمَحْزُونُونَ". [١] وَأَيْضًا فَاسْتِيلَاءُ الْحُزْنِ عَلَى الْإِنْسَانِ لَيْسَ بِاخْتِيَارِهِ، فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ دَاخِلًا تَحْتَ التَّكْلِيفِ وَأَمَّا التَّأَوُّهُ وَإِرْسَالُ الْبُكَاءِ فَقَدْ يَصِيرُ بِحَيْثُ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ، وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي الرِّوَايَاتِ الَّتِي ذَكَرْتُمْ فَالْمُعَاتَبَةُ فِيهَا إِنَّمَا كَانَتْ لِأَجْلِ أَنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ. [٢]

كذا فرق بينهما أبو هلال العسكري فقال: "الحزن يُفِيد غلظ اللَّهُمَّ، وَقَوْلنَا: البث يُفِيد أَنه ينبث وَلَا ينكتم من قَوْلك: أبثثته مَا عِنْد وبثثته إِذا أعلمته إِيَّاه. وأصل الْكَلِمَة كَثْرَة التَّفْرِيق وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: (كالفراش المبثوث) وقال تعالى: (إِنَّمَا أَشْكُو بثي وحزني إلى الله) فعطف البث على الحزن لما بينهما من الفرق فِي المعنى وهو ما ذكرناه". [٣] وكذا فرق بينهما أبو الطيب البخاري القنوجي (ت ١٣٠٧هـ) فقال: "البث ما يرد على الإنسان من الأشياء التي تعظم حزن صاحبها حتى لا يقدر على إخفائها، كذا قال أهل اللغة وهو مأخوذ من بثثته أي فرقته، فسميت المصيبة بثاً مجازاً... وقد ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزناً وهماً، وإن لم يقدر على كتمه وذكره لغيره كان ذلك بثاً، فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه، وقيل البث: الهم، وقيل: الحاجة، وعلى هذا يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى، وأما على تفسير البث بالحزن العظيم فكأنه قال: إنما أشكو حزني العظيم وما دونه من الحزن القليل إلى الله لا إلى غيره من الناس ولا إليكم. [٤]

ونظير ذلك من الألفاظ التي تحمل دلالات نفسية مباشرة ومتقاربة في معناها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حتى ظن بعض العلماء أنها

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ١٨/ ٤٩٧.

(٢) السابق نفسه.

(٣) الفروق اللغوية صـ ٢٦٧.

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن – أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي ٦/ ٣٨٩.

مترادفة تحمل معنى واحدا ألفاظ: الحب والمودة، الفرح والسرور، التبسم والضحك، الذلة والمسكنة، اليأس والقنوط، البغض والكره، الحسد والحقد، البخل والشح، النفور والإعراض والاشمئزاز، عبس وكلح، وغير ذلك من الألفاظ التي تشيع في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مما يضيق مجال البحث عن حصرها واستيعابها وتحليلها، وهذا إن دل فإنما يدل على أن للألفاظ في اللغة العربية عامة، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة خاصة خصوصية معنوية متفردة يحددها السياق بحيث لا يحل غيرها محلها في ذات السياق ولا يشاركها فيها غيرها من أقرب الألفاظ دلالة عليها. فهي كما قال الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) في رسالته (بيان إعجاز القرآن): "لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كان يشتركان في بعضها". [١] أو كما قال ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): "إن التَّرَادف في اللغة قليل وأما في ألفاظ القُرْآنِ فإما نادر وإما معدوم، وَقَلّ أن يُعَبَّرَ عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤَدِّي جميع معناه؛ بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القُرآن". [٢] يقول د/ عبد الفتاح لاشين: "وقد كان القرآن الكريم دقيقًا في اختيار ألفاظه وانتقاء كلماته، فإذا اختار اللفظ معرفة كان ذلك لسبب، وإذا انتقاه نكرة كان ذلك لغرض، كذلك إذا كان اللفظ مفردًا كان ذلك لمقتضى يطلبه، وإذا كان مجموعًا كان لحال يناسبه، وقد يختار الكلمة ويهمل مرادفها، وقد يفضل كلمة على أخرى والكلمتان ظاهرًا بمعنى واحد، وربما يتخطى في التعبير المحسن اللفظي والجمال البديعي على قدره وحسنه لغرض أسمى وهو الحسن المعنوي، وكل ذلك لغرض يرمي إليه في

(١) ينظر: بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي – ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني) صـ ٢٩، ٣٠.

(٢) مجموع الفتاوى –– ابن تيمية الحراني ١٣/ ٣٤١: ٣٤٣. ٣٨٩.

التعبير، وهكذا دائمًا لكل مقام مقال في التعبير القرآني". [١] لذلك يجب "على المفسر مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد؛ ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد". [٢]

(١) من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة) – د/ عبد الفتاح لاشين صـ ١٥، ١٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٤/ ٧٨.

الخاتمة

الحمد الله الذي أنعم علي بنعمة التمام، وأعزني بشرف البحث والتأمل في كتابه الكريم وسنة نبيه – ﷺ – حمدا كثيرا يكافئ نعمه، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد – ﷺ – وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فقد توصلت في بحثي هذا إلى عدة نتائج أبرزها ما يلي:

١. الارتباط الوثيق بين علم اللغة وعلم النفس عامة وعلم اللغة النفسي الذي ظهر في العصر الحديث خاصة حيث يهتم بفهم اللغة المنطوقة والمكتوبة وباستعمالها ودراسة اللغة وصفا وتحليلا واكتساب وتعلما وتعليما وهو "العلم الذي يهتم بالكشف عن العمليات التي النفسية التي تقود الإنسان إلى اكتساب اللغة واستعمالها". مما نتج عنه في الدراسات اللغوية الحديثة علم قائم بذاته يسمى علم اللغة النفسي.

٢. أن من يعكِفْ على دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يجد وصفاً دقيقاً وتشخيصاً حياً لكثير من الانفعالات النفسية الإرادية أو غير الإرادية التي يشعر بها الإنسان في حياته، مثل الغيظ، والخوف، والغضب، والسخرية والبغض، والكره، والحرة، والندم، وغيرها.

٣. أن الدلالة النفسية هي أحد أهم أنواع الدلالات التي يمكن استنباطها من الألفاظ والتراكيب والأساليب فيظهر المعنى النفسي من خلالها في صورة كأوضح ما يكون.

٤. أن الدلالة النفسية في القرآن الكريم لم تكن شائعة في المفردات التي تحمل شحنات عاطفية سلبية أو إيجابية فقط وإنما كانت في الألفاظ تارة، وفي التراكيب والأساليب تارة ثانية، وفي القصة بأكملها تارة ثالثة.

٥. يستطيع السياق العاطفي رسم صورة واضحة عن الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان في موقف ما وهو ما بدا واضحا في السياق القرآني وفي الحديث النبوي الشريف فأظهرا الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان يوم القيامة أو وقت الحسرة والندم وكأنك حاضر وشاهد لا مخبر.

٦. وجود فروق دلالية في ألفاظ تدل على حالة نفسية واحدة، وثبوت القول بعدم ترادفها ترادفا تاما كما ظن بعض العلماء، لما تحمله كل منها من درجة انفعالية قوة أو ضعفا مختلفة عن نظيرتها أو أقرب الألفاظ إليها.

٧. أن الوقوف على الدلالات النفسية والظلال والإيحاءات النفسية له دور مهم في الكشف عن عبقرية اللغة العربية عامة والإعجاز اللغوي للقرآن الكريم والأحاديث النبوية خاصة.

٨. أدرك علماؤنا القدامى وخاصة مفسرو القرآن الكريم وشارحو السنة النبوية الشريفة قبل المحدثين الغربيين قيمة الدلالة النفسية للمفردات والتراكيب والأساليب اللغوية، كما عرفوا السياق العاطفي وإن لم يسموه بهذا الاسم وظهر ذلك من خلال تفسيرهم للآيات القرآنية وشرحهم للأحاديث النبوية.

٩. بينت هذه الدراسة ووضحت أهمية معرفة الظروف الخارجية التي نزلت فيها الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية؛ لما لها من دور فاعل ومؤثر في الوقوف على فهم اللفظ وفقه المعنى عن طريق ما يحمله اللفظ أو الأسلوب من إيحاءات وظلال نفسية تبرز المعنى بدقة متناهية وإن كان على خلاف أصل ما وضع له في أصل اللغة.

١٠. كان للتعبيرات المجازية أثر كبير ومهم في بيان وإيضاح الدلالة النفسية والتي كان التعبير بها أكثر دقة من التصريح الذي يتنافى مع قيم وأخلاق المجتمع المسلم من ناحية، وبعث التفاؤل من ناحية ثانية، والتأدب في التعبير من ناحية ثالثة، وتصوير بعض المشاهد العقلية في صورة حسية وتشخيصية تبرزها للعيان وكأنك حاضر ومعاين لها لا مخبر عنها من ناحية رابعة.

١١. أن للألوان تأثيرها النفسي في حياة الإنسان، فحين يحدث تغير في لون وجه الإنسان فإن ذلك يكون دليلا على حالته النفسية التي هو عليها في ذات اللحظة فرحا أو غضبا أو خجلا أو ألما أو كآبة وسوء حال.

وصلى الله وبارك على سيدنا محمد عدد كل نفس ولمحة وعدد الحركات والسكون وعدد ما كان وما يكون

فهرس المصادر والمراجع:

- الإبانة الكبرى لابن بطة – أبو عبد الله عبيد الله بن محمد المعروف بابن بَطَّة العكبري – تح/ رضا معطي، وآخرين – دار الراية/ الرياض – ط/ الأولى ١٤١٥هـ.
- الإبانة في اللغة العربية – أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العوتبي – تح د/ عبد الكريم خليفة، وآخرين – وزارة التراث القومي والثقافة/ مسقط، سلطنة عمان – ط/ الأولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- الآثار – أبو يوسف يعقوب بن حبتة الأنصاري – تح/ أبو الوفا – دار الكتب العلمية/ بيروت – من دون تاريخ.
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان– محمد بن حبان – تح/ شعيب الأرنؤوط –– مؤسسة الرسالة/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- أخلاق الوزيرين – أبو حيان التوحيدي – تح/ محمد بن تاويت الطنجي – دار صادر/ بيروت، لبنان ١٩٩٢م.
- الأدب المفرد – محمد بن إسماعيل البخاري – تح/ محمد فؤاد عبد الباقي – دار البشائر الإسلامية/ بيروت – ط/ الثالثة ١٤٠٩/ ١٩٨٩.
- الأذكار للنووي – أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي – دار ابن حزم– ط/ الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري – أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الملك القسطلاني – المطبعة الكبرى الأميرية/ مصر – ط/ السابعة ١٣٢٣هـ.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – أبو السعود العمادي – دار إحياء التراث العربي/ بيروت – من دون تاريخ.
- أسرار الترادف في القرآن – د/ علي اليمني دردير – دار ابن حنظل/ الفيوم، مصر ١٩٨٥م

- الأسماء والصفات للبيهقي – أبو بكر البيهقي – تح/ عبد الله بن محمد الحاشدي – مكتبة السوادي/ جدة، المملكة العربية السعودية – ط/ الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الأمين المختار الشنقيطي – دار الفكر/ بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة – محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني – تح د/ محمد حسن عواد – دار الجيل – بيروت – ط/ الأولى ١٤١١هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي – تح/ محمد عبد الرحمن المرعشلي – دار إحياء التراث العربي/ بيروت – ط/ الأولى ١٤١٨هـ.
- أوضح التفاسير – محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب – المطبعة المصرية ومكتبتها – ط/ السادسة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير – أبو بكر الجزائري – مكتبة العلوم والحكم/ المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية – ط/ الخامسة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م
- البحر المحيط في التفسير – أبو حيان الأندلسي – تح/ صدقي محمد جميل – دار الفكر/ بيروت ١٤٢٠هـ.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد – أبو العباس أحمد بن محمد الفاسي – تح/ أحمد عبد الله القرشي رسلان – الناشر: د/ حسن عباس زكي/ القاهرة ١٤١٩هـ.
- البداية والنهاية – ابن كثير – دار الفكر ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- البرهان في علوم القرآن – الزركشي – دار إحياء الكتب العربية – ط/الأولى ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

- البعث والنشور للبيهقي – أبو بكر البيهقي – تح الشيخ /عامر أحمد حيدر – مركز الخدمات والأبحاث الثقافية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي – ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني) – تح/ محمد خلف الله أحمد، د/ محمد زغلول سلام – دار المعارف/ مصر – ط/ الثالثة بدون تاريخ.
- تاج العروس من جواهر القاموس – محمّد مرتضى، الزَّبيدي – تح/ مجموعة من المحققين – دار الهداية.
- تاج اللغة وصحاح العربية – إسماعيل بن حماد الجوهري – دار العلم للملايين/ بيروت – ط/ الرابعة ١٩٩٠.
- التبيان في تفسير غريب القرآن – أبو العباس، شهاب الدين، ابن الهائم – تح د/ ضاحي عبد الباقي محمد – دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط/ الأولى ١٤٢٣هـ.
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» – محمد الطاهر بن عاشور التونسي – الدار التونسية للنشر/ تونس ١٩٨٤هـ.
- تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم دراسة فنية – إعداد/ صالح ملا عزيز – المكتبة الشاملة
- التصوير الفني في القرآن الكريم – سيد قطب إبراهيم – دار الشروق/ مصر.
- التضمين النحوي في القرآن الكريم– محمد نديم فاضل – دار الزمان/ المدينة المنورة، السعودية – ط/ الأولى١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- التعبير القرآني – د/ فاضل صالح السامرائي – دار عمار – ط/ الرابعة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

- التعريفات – علي بن محمد الجرجاني – تح/ إبراهيم الأبياري – دار الكتاب العربي/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٠٥هـ.
- التفاؤل والتشاؤم في المنظور النفسي – أ/ صالحي سعيدة – مجلة دفاتر علم الاجتماع ISSN : 2335-1527
- تفسير ابن عرفة – محمد بن عرفة الورغمي – تح/ جلال الدين الأسيوطي – دار الكتب العلمية/بيروت– ط/الأولى ٢٠٠٨م.
- التفسير الحديث – دروزة محمد عزت – دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة ١٣٨٣هـ.
- تفسير الشعراوي – محمد متولي الشعراوي – مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧م.
- تفسير القرآن العظيم – أبو الفداء ابن كثير القرشي – تح/ سامي بن محمد سلامة – دار طيبة – ط/ الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم يونس الخطيب – دار الفكر العربي/ القاهرة.
- التفسير المظهري – محمد ثناء الله المظهري – تح/ غلام نبي التونسي – مكتبة الرشدية، الباكستان ١٤١٢هـ.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج – د/ وهبة الزحيلي – دار الفكر المعاصر/ دمشق – ط/ الثانية ١٤١٨هـ.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – الشيخ/ محمد سيد طنطاوي – دار نهضة مصر/ الفجالة، القاهرة – ط/ الأولى فبراير ١٩٩٨م.
- تهذيب اللغة – أبو منصور الأزهري – تح/ محمد عوض مرعب – دار إحياء التراث العربي/ بيروت – ط/ الأولى ٢٠٠١م
- التوقيف على مهمات التعاريف – عبد الرؤوف المناوي – عالم الكتب/ القاهرة – ط/ الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي – تح/ عبد الرحمن بن معلا اللويحق – مؤسسة الرسالة – ط/ الأولى ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠ م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن – محمد بن جرير أبو جعفر الطبري – تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي – دار هجر للطباعة – ط/ الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري – محمد بن إسماعيل البخاري– تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر – دار طوق النجاة – ط/ الأولى ١٤٢٢هـ.
- الجامع لابن وهب – أبو محمد عبد الله بن وهب القرشي –تح د/ مصطفى أبو الخير– دار ابن الجوزي/الرياض – ط/ الأولى ١٤١٦هـ.
- الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – تح/ أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش – دار الكتب المصرية/القاهرة – ط/ الثانية ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- جواهر الألفاظ – قدامة بن جعفر الكاتب – مكتبة الخانجي/مصر – ط/ الأولى ١٣٥٠هـ/ ١٩٣٢م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – أبو نعيم أحمد موسى بن مهران الأصبهاني – السعادة/مصر ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- الخصائص – أبو الفتح عثمان بن جني – الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر – الطبعة/ الرابعة.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية – د/ عبد العظيم المطعني – مكتبة وهبة/ القاهرة – ط/ الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون – السمين الحلبي – تح د/ أحمد محمد الخراط – دار القلم/ دمشق.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور – جلال الدين السيوطي – دار الفكر/ بيروت.
- دور الكلمة في اللغة – ستيفن أولمان – ترجمة د/ كمال بشر – مكتبة الشباب/ مصر من دون تاريخ.
- ديوان الحارث بن حلزة اليشكري – مروان بن العطية – دار الإمام النووي/ دمشق – ط/ الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- ديوان الهذليين – ترتيب وتعليق/ محمّد محمود الشنقيطي – الدار القومية للطباعة/ القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م
- ديوان جرير– دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- ديوان عمرو بن كلثوم – تح د/ إميل بديع يعقوب – دار الكتاب العربي/ بيروت – ط/ الثانية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- ديوان مهلهل بن ربيعة – شرح وتقديم/ طلال حرب – الدار العالمية من دون طبعة وتاريخ.
- روح البيان – إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي – دار الفكر/ بيروت – من دون تاريخ.
- زاد المسير في علم التفسير – جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي – تح/ عبد الرزاق المهدي – دار الكتاب العربي/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٢٢هـ.
- الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي – أبو منصور الأزهري – تح/ مسعد عبد الحميد السعدني – دار الطلائع.
- الزهد والرقائق – أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الحنظلي – تح/ حبيب الرحمن الأعظمي – دار الكتب العلمية/ بيروت.
- زهرة التفاسير – محمد بن أحمد المعروف بأبي زهرة – دار الفكر العربي – من دون تاريخ.

- سنن ابن ماجة – أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني – تح/ محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء الكتب العربية/مصر من دون تاريخ.
- سنن أبي داود – أبو داود سليمان السجستاني – تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية/ صيدا، بيروت.
- سنن الترمذي – أبو عيسى الترمذي – تح/ بشار عواد معروف – دار الغرب الإسلامي/ بيروت ١٩٩٨م.
- السنن الكبرى – أبو بكر البيهقي – تح/ محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/ الثالثة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- السنن الكبرى – النسائي – تح/ حسن شلبي – مؤسسة الرسالة/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- السيرة النبوية لابن هشام – عبد الملك بن هشام المعافري– تح/ مصطفى السقا، وآخرين – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر – ط/ الثانية ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م،
- شرح السنة – أبو محمد الحسين البغوي – تح/ شعيب الأرنؤوط– ومحمد زهير الشاويش – المكتب الإسلامي/ دمشق، بيروت – ط/ الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية «لأربعة آلاف شاهد شعري» – محمد بن محمد حسن شُرَّاب – مؤسسة الرسالة/ بيروت، لبنان – ط/ الأولى ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.
- شرح ديوان الحماسة – أبو على الأصفهاني – تح/ غريد الشيخ – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- شرح فتح المجيد – عبد الله بن محمد الغنيمان – بترقيم الشاملة آليا.

- شرح مشكل الآثار – أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلمة الأزدي المعروف بالطحاوي – تح/ شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – ط/ الأولى ١٤١٥هـ.
- شرح معاني الآثار – أبو جعفر أحمد بن سلمة الأزدي المعروف بالطحاوي – تح/محمد زهري النجار، ومحمد سيد جاد الحق – عالم الكتب – ط/ الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- شعب الإيمان – أبو بكر البيهقي – تح د/عبد العلي عبد الحميد حامد – مكتبة الرشد/ الرياض – ط/ الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان – محمد بن حبان البُستي – تح/ شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة/ بيروت – ط/ الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ) – مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري– تح/ محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
- علم الدلالة أصوله ومباحثه – منقور عبد الجليل – اتحاد الكتاب العرب/ دمشق ٢٠٠١م.
- علم اللغة النفسي مناهجه ونظرياته وقضاياه الجزء الأول (المناهج والنظريات) – د/ جلال شمس الدين – مؤسسة الثقافة الجامعية/ الإسكندرية، مصر.
- علم اللغة النفسي في التراث العربي – د/ جاسم علي جاسم – مجلة الجامعة الإسلامية – العدد ١٥٤.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري – بدر الدين العيني ـــ دار إحياء التراث العربي/ بيروت من دون تاريخ.
- غريب الحديث – ابن قتيبة الدينوري – تح د/عبد الله الجبوري – مطبعة العاني/ بغداد – ط/الأولى ١٣٩٧هـ.

- الفائق في غريب الحديث – الزمخشري – تح/ علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعرفة/ لبنان.
- فتح البيان في مقاصد القرآن – أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي – المَكتبة العصريَّة/ صَيدَا، بَيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- الفروق اللغوية – أبو هلال العسكري – تح/ محمد إبراهيم سليم – دار العلم والثقافة/ القاهرة، مصر.
- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم – د/ محمد بن عبد الرحمن الشايع – مكتبة العبيكان/ الرياض من دون تاريخ.
- في ظلال القرآن – سيد قطب إبراهيم – دار الشروق، بيروت – القاهرة – الطبعة/ السابعة عشر ١٤١٢هـ.
- القاموس المحيط – الفيروز آبادي – تح/ مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة – مؤسسة الرسالة/ بيروت – ط/ الثامنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- القرآن وعلم النفس – د/ محمد عثمان نجاتي – دار الشروق – ط/ السابعة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- القصص القرآني رؤية فنية – د/ فالح الربيعي – دار الثقافة للنشر/ القاهرة – ط/ الأولى ٢٠٠٢.
- الكامل في اللغة والأدب – المبرد – تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم – دار الفكر العربي/ القاهرة – ط/ الثالثة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م
- كتاب الألفاظ لابن السكيت – ابن السكيت – تح د/ فخر الدين قباوة – مكتبة لبنان ناشرون – ط/ الأولى ١٩٩٨م.
- كتاب العين – الخليل بن أحمد – تح د/ مهدي المخزومي، ود/ إبراهيم السامرائي – دار ومكتبة الهلال من دون تاريخ.
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار – أبو بكر بن أبي شيبة – تح/ كمال يوسف الحوت – مكتبة الرشد/ الرياض – ط/ الأولى ١٤٠٩هـ.

- كتاب فقه اللغة وسر العربية – الثعالبي – تح/ فائز محمد – دار الكتاب العربي بيروت/ لبنان – ط/ أولى ٢٠٠٦م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – الزمخشري – دار الكتاب العربي/ بيروت – ط/ الثالثة ١٤٠٧هـ.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية – أبو البقاء الكفوي – تح/ عدنان درويش، ومحمد المصري – مؤسسة الرسالة/ بيروت.
- اللامساس في الفكر اللغوي الحديث – د/ محمد محمود السيد أبو حسين – دار الفكر العربي/القاهرة ٢٠٠٢م.
- لسان العرب – محمد بن مكرم بن منظور – دار صادر/ بيروت – ط/ الأولى بدون تاريخ.
- اللسانيات الاجتماعية في الدراسات العربية الحديثة التلقي والتمثلات – د/ حسن كزار – دار الرافدين/ بيروت– ط/ الأولى ٢٠١٨م.
- اللغة والمجتمع "رأي ومنهج"– د/ محمود السعران – دار المعرفة الجامعية/الإسكندرية ١٩٦٣م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ابن الأثير الكاتب – تح/ محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية/ بيروت ١٤٢٠هـ.
- المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي – أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي – تح/ عبد الفتاح أبو غدة – مكتب المطبوعات الإسلامية/ حلب – ط/ الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار – جمال الدين، محمد طاهر بن علي الكجراتي – مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – ط/ الثالثة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

- مجموع الفتاوى – ابن تيمية الحراني – تح/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف/ المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- محاسن التأويل – محمد جمال الدين القاسمي – تح/ محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤١٨هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية الأندلسي – تح/ عبد السلام عبد الشافي محمد – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٢٢هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم – أبو الحسن بن سيده المرسي – تح/عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل – عبد الله بن أحمد بن علي الزيد – دار السلام/ الرياض – ط/ الأولى ١٤١٦هـ.
- المخصص – أبو الحسن بن سيده المرسي – تح/ خليل إبراهم جفال – دار إحياء التراث العربي/ بيروت – ط/ الأولى ١٤١٧هـ /١٩٩٦م.
- مخطوطة الجمل – حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل – الهيئة المصرية العامة للكتاب/ مصر – ط/ الأولى ٢٠٠٣ – ٢٠٠٨م.
- المسائل المشكلة – أبو علي الفارسي– دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م.
- المستدرك على الصحيحين – الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع – تح/ مصطفى عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- مسند أبي يعلى – أبو يعلى أحمد بن علي الموصلي – تح/ حسين سليم أسد – دار المأمون للتراث/ دمشق – ط/ الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل – أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني – تح/ شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون – مؤسسة الرسالة – ط/ الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي) – أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي– تح/ حسين سليم أسد الداراني – دار المغني/ المملكة العربية السعودية – ط/ الأولى ١٤١٢هـ/ ٢٠٠٠م.
- المصنف – أبو بكر عبد الرزاق– تح/ حبيب الرحمن الأعظمي – المكتب الإسلامي/ بيروت – ط/ الثانية ١٤٠٣هـ.
- معجم الأصوات – المكتبة الشاملة.
- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم – د/ محمد محمد داود – دار غريب/ القاهرة ٢٠٠٨م.
- معجم الفروق اللغوية – أبو هلال العسكري – تح الشيخ/ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي – مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم» – ط/ الأولى ١٤١٢هـ.
- المعجم الكبير – أبو القاسم الطبراني – تح/ حمدي بن عبد المجيد السلفي – مكتبة ابن تيمية/ القاهرة – ط/ الثانية من دون تاريخ.
- معجم مقاييس اللغة – أبو الحسين أحمد بن فارس – تح/ عبد السلام محمد هارون – دار الفكر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني – تح/ صفوان عدنان الداودي – دار القلم، الدار الشامية/ دمشق، بيروت – ط/ الأولى ١٤١٢هـ.
- مقالات في علم النفس – محمد مصطفى الشعبيني – مكتبة النهضة/ مصر – ط/ الثانية ١٩٦٣م.
- من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة) – د/ عبد الفتاح لاشين – دار المريخ للنشر ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.

- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري – حمزة محمد قاسم – مكتبة دار البيان/ دمشق، الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف/ المملكة العربية السعودية ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد – إبراهيم اليازجي – مكتبة لبنان/ بيروت – ط/ الثالثة ١٩٨٥م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – الإمام/ برهان الدين البقاعي – دار الكتب العلمية/بيروت – ط/ الثانية ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر– ابن الأثير – تح/طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي –المكتبة العلمية/بيروت ١٣٩٩/ ١٩٧٩م.